

اخترنا لك

٧١

السياسة العالمية

بقلم

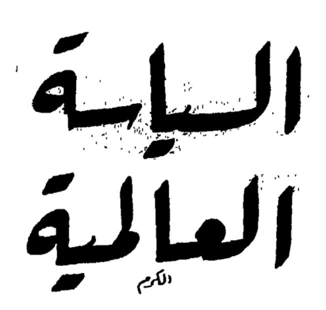
ا . ف . ك . أورجانسكى

WORLD POLITICS

A.F.K. ORGANSKI

إخترنا لك :

٧١



بقلم

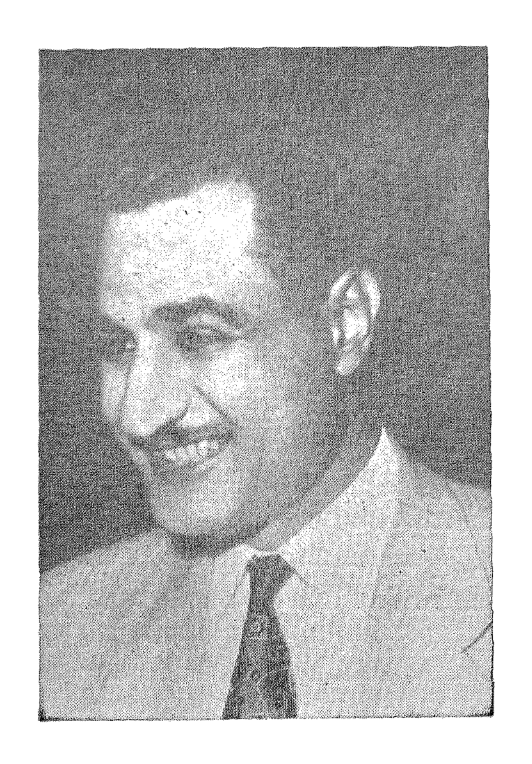
ا . ف . ك . اورجانسكى

WORLD POLITICS

by A. F. K. ORGANSKI

الجزء الاول

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



. الرئيس جمال عبد الناصر

تعريف بالكتاب

ان هذا الكتاب يبحث فى موضوع العلاقات الدولية من زاوية جديدة • ويتميز كتاب « السياسة العالمية» بالمعلومات الوافرة والتحليل الدقيق والتنظيم الواضح فى أسلوب بسيط جذاب •

ويشتمل هذا الكتاب على دراسة تفصيلية للنظريات « الواقعية » ويتعمق فى دراسة الاحداث الرئيسية التى تمخضت عنها السياسة العالمية فى خلال القرون القليلة الماضية • ولكن يجب ألا يفهم من ذلك أنه مجرد دراسة سلبية لهذا الموضوع ، فعلى الرغم من أن مؤلف الكتاب من علماء السياسة فانه يتعرض للكثير من الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والتاريخية • وبالاستعانة بكل هذه الموضوعات يضع المؤلف اطارا يضم عناصر النظام العالمى بطريقة مفهومة فيبرز معانى هذا النظام ومغزاه •

ولم يقدم لنا الدكتور أورجانسكى مجموعة متفرقة من المقالات ضمها فى كتاب واحد بل انه توصل الى مبادئه الاولى

بطريق الاستقراء ثم وصل فى النهاية الى الاستنتاجات المنطقيـة التى ضمنها كتابه .

ويتعرض الدكتور أورجانسكى فى كتابه لكثير من مشكلات الساعة مثل مشكلة الحرب العالمية الثالثة التى يخشاها العالم أجمع . كما يتعرض لسؤال أخذ يتردد فى هذه الآونة وهو هل ستحتفظ الولايات المتحدة بمكانتها فى السياسة العالمية أو انها ستخلى هذه المكانة للدول الشيوعية أو المحايدة ؟

مقدمـــة

اعتقد ان فهم العلاقات الدولية يتطلب منا أولا وقبل كل شيء أن نضع اطارا تنتظم بداخله جميع المعلومـات التفصيلية التى تتعرض لهذا الموضوع . ويعتبر هذا الكتاب محاولة لرسـم ذلك الاطار للقارىء . والواقع اننى لا أكون قد حققت الغرض الذى استهدفه بكتابى هذا الا اذا شعرت ايها القارىء ــ بعـد الفراغ من قراءة هذا الكتاب ــ اننى تمكنت من أن اضع اجابة صحيحة لهذا اللغز العالمى داخل الاطار الذى رسمته .

ولقد ساعدنى فى وضع هذا الكتاب شخصان :

أما الشخص الاول فهو زوجتى التى قامت بدراسة كـل سطر من سطور الكتاب من حيث الاسلوب والافكار وبحثت معى كل فكرة قبل كتابتها وبعدها . وساهمت بكثير من الافكار التى تؤمن بها وبالكثير من الاستنتاجات الهامة التى توصلت اليهـا أثناء وضعها لكتابها الذى يبحث فى تأثير السكان على العلاقات الدولية . اننى أدين لها كثيرا بحيث لا يكفى مجرد الاعتراف بهذا الدين .

أما الشخص الآخر فهو البروفسور ف. و. كى بجامعـة

هارفارد الذى قرأ أصول الكتاب وابدى اقتراحاته عليها • وما كنت اطمع فى ان يقرأ كتابى ناقد اثقب نظرا واوسع علما من هذا الاستاذ • والحقيقة ان الملاحظات التى ابداها كانت عظيمة الفائدة وكبيرة القيمة لذلك اقدم له شكرى العميق على النقد والتشجيع اللذين قدمهما لى •

وان كنت ادين لهذين الشخصين فاننى أدين ايضا بالثروة الثقافية التى تضمنها هذا الكتاب لكثير من الاساتذة والمفكرين ويبدو لى انه من الانصاف أن اذكر أهمهم •

تطلبت محاولة وضع اطار متماسك لفهم الشئون الدولية يجمع الكثير من المعلومات والافكار التى سبق أن ظهرت الى الوجود منذ فترة بعيدة • انه لمن السخرية ان اقول اننى تأثرت بكتابة اربعة من الاساتذة ربما لا يتفق معى فى كثير من الآراء الواردة فى هذا الكتاب ثلاثة منهم • اوضح لى جيمس برنهام صورة قوية كاملة عن مؤلفات كبار الكتاب الايطاليين والفرنسيين أمثال باريتو وميشيلز وسوريل وموسكا وماكيافللى • والواقع ان آراء هؤلاء الكتاب وافكارهم كانت بمثابة الاساس الذى قام عليه هذا الكتاب • وقد تأثرت ايضا بمحاضرات الاستاذ كلايد ايجلتون فى القانون الدولى والمنظمات الدولية فكانت بمثابة المقدمة التى اهتديت بها فى البحث فى مجال العلاقات الدولية • والواقع أن حب هذا الاستاذ واخلاصه للبحث فى هذا المجال

حفزانى الى شق طريقى فى حياتى العملية . وأدين بالكثير للبروفسور كلايد ف كيسر الذى فتح أمامى آفاقا جديدة فى مجال العلاقات الدولية بمحاضرات عن مشكلات السكان . وأشكر ايضا الدكتور هربرت هايوارد أستاذى وزميلى الذى وجه الى كثيرا من الآراء السديدة التى جعلتنى اطرق أبوابا لم يطرقها أحد فى مجال العلاقات الدولية .

وان كنت ادين لغيرى بالكثير فانا المسئول أولا واخيرا عن كل ما ضمنته هذا الكتاب .

ا . ف . ك . أورجانسكى

الفصـــل الاول

مدخل الى موضوع هذا البحث

تعتبر العلاقات الدولية دراسة تكتنفها البديهيــات . فهى موضوع يلعب فيه كل فرد دور الخبير ، كما ان لكل مدرس ولكل خطيب ولكل واعظ بل لكل امرىء مهما كان شأنه رأى خاص وقصة فريدة .

كما حاول بعض الكتاب المعروفين جاهدين ان يقدموا لنــا بعض اللمحات عن النواحى الظاهرة فيها .

وتمدنا الصحف اليومية بجرعة يومية تنطوى على التفاؤل الحذر ، وتعالج موضوع تغلب العدالة بصور شتى ، وهذه فى الواقع مهمة شاقة .

ولكن ما أشنع ذلك من ظلم فاحش لانه اذا كان هنـــاك موضوع يجدى فيه التفكير الجدى السليم فان ذلك لا بد إن يكون موضوع العلاقات الدولية . فان أهمية دراستها اليــوم اصبحت أمرا واضحا كل الوضوح .

ولا يحرص احدنا على أن تنتهى حياته بذرة من ذرات الغبار الذرى . فقد سيطر علينا الخوف من قيام الحــرب بل كاد أن

يشل تفكيرنا . وأصبحنا كالشعوب البدائية التى انشغلت بالسحر فصرنا نكرر التماس السبل التى لم تجد من قبل جريا على العادة .

ونحن الآن أشبه ما نكون بالرجل الذى التقى بأجنبى غريب عنه ولا يمكنه أن يفهم لغته فاضطر الى أن يرفع صوته قليلا حتى يفطن الآخر الى مراده .. ونحن ندرك تماما ماهية المشكلات التى تنتظر حلولها ، ولكننا لن نشرع فى علاجها الا اذا توقفنا عن الصراخ والعويل ودرسنا هذه المشكلات فى اطار عقلى مستقر .

ولا يعنى هذا اننا نقول ان دراسة ــ العلاقات الدولية تفتقر الى عنصر الاثارة بل اننا نقصد ان نقول خلاف هذا تماما فان العلاقات الدولية تنطوى على قدر كبير من المأساة . اذ أن أكثر الشخصيات فى العالم تشويقا تعتلى مسرحها وتشكل معظم الاحداث العالمية المهمة تاريخها . ولقد اتسمت العلاقات بين الدول بالاضطراب والتوتر لاسيما فى السنوات التى أعقبت عام ١٩١٤ وهزت اعماقنا حربان عالميتان عظيمتان فاصبحنا نعيش فى خوف وهلع دائم ، ولرتعد فرقا .. بالرغم من ارادتنا ورغباتنا .. خشية قيام حرب ثالثة .

ولقد شهدت هذه الاعوام نفسها نهضة الولايات المتحدة التى تطورت بسرعة فائقة من حيث الثروة والقوة حتى تمكنا ــ دون أن تتحمس لذلك كثيرا ــ من تسلم زعامة العالم من بريطانيا

لنجد أن ما أحرزناه دون بذل الجهد يقتضى بذل جهود كبيرة للاحتفاظ به ، اذ ان هناك دولا جديدة عملاقة ظهرت بجانبنا وتنافسنا .

وخلف هذه المأساة العنيفة والاحداث المتلاحقة التى تكتنف هذه الحرب وهذا الصراع من أجل تولى زعامة العالم .. نجد أن هناك مأساة أخرى أكثر عمقا تأخذ مجراها .

فان حركة التصنيع تغير وجه المعمورة فتخلق أمما جديدة وتغير من طبيعة السياسة الدولية . وهذا التغيير الزاحف اقتصادى واجتماعى فى جذوره ، غير ان تقدمه يتميز ببعض الثورات السياسية .

وها هى تلك الدول المستعمرة تنفض عنها أغلال الاستعمار وتحقق حرياتها ويمضى الاستعمار ـ كما نعلم ـ نحو نهايته .

كما يتغير توزيع القوى بين الامم الكبرى فى العالم .. وتقترب الفترة التى كان يسودها حكم الرجل الابيض من نهايتها .

ومن اروع الاشياء التى تكتنف هذا العصر الذى نعيش فيه أننا نعيش بين حقبتين من حقب التاريخ . فقد ولدنا فى عالم وكتب وعلينا أن نموت فى عالم آخر وحياتنا هى الطريق الذى تصل بين هذين العالمين ، والذى سنقف فيه بضع سنين لنتمكن خلالها من أن نشاهد كلا منهما .

ونحن نعيش على حافة هاوية عاصفة تفصل بين واديـــين هادئين • فالرياح عنيفة قاسية ولكن المنظر هائل رائع •

ولقد كان معظم الناس الذين عاشوا منذ خمسين سنة •• ينظرون الى آفاق محدودة فلم يبحثوا فى القواعد التى عاشوا وفقــا لها أو ناقشوا التفســيرات المقبولــة للاحــداث التى كانت تمر بهم •

وكانوا يسلمون بان العالم كما كانوا يدركونه سيستمر على هذا المنوال الى الابد ، وان طرأت عليه بعض الاصلاحات الطفيفة فى سبيل التقدم •

كما أن الناس الذين سيعيشون مائة عام منذ الان سيكونون نظرة للعالم اكثر تحديدا • فهم سيرون الماضى الذى تحجبه عنهم الآن الجبال الشاهقة •• متخذا طابع الاسطورة التى تجســمت فى حذق بالغ بحيث لا تدع مجالا لتشويش وجهات النظر والمثل السائر ، على حين هم سيقبلون الحاضر على انه من الامور الابدية

أما نحن الذين نعيش فى وقت يكتنفه الاضطراب والتغـــير فنقضى معظم حياتنا فى حقبة من تلك الحقب القصيرة لأجل الحقبة التى يمكن المرء فيها أن يرى الماضى والمستقبل فى اطار واضح ، وأن يفطن الى الاختلافات بينهما، وأن يقتفى أسباب الاختلافات ومبرراتها •

فنحن اذن فى عصر تزدهر فيه العلوم الاجتماعية ومن بينها العلاقات الدولية .

وتعتبر العلاقات الدولية اليوم .. بوصفها علما من العلوم فى مهد طفولتها فهى لم تبلغ فى مرحلتها الحالية مرتبة العلم ولكنها خليط من الفلسفة والتاريخ والفن . فنظرياتها قليلة محدودة لا تقوى امام البحث بدرجة مذهلة . وتتسم الدراسات التى تتناول هذا الموضوع بطابع وصفى الى حد كبير . ومع ذلك فقد ترتبت على هذه المعالجة الوصفية التاريخية لـه فى جمع قدر هائل من المعلومات عنه . كما تزودنا الصحف اليومية بالمزيد من هذه المعلومات ..

والآن يبدأ واضعو النظريات فى اعداد نوع من الاطار النظرى الضرورى لتنظيم هذه الحقائق ولتفسيرها . ولقد أوشك البحث أن يسفر عن اكتشافات عظيمة .

ومع ان الباحثين فيه اليوم ما زالوا يتلمسون طريقهم فان السنوات القادمة ستشهد ارساء القواعد الاساسية لنظام جديد له . وربما استطاع قراء هذا الكتاب تقديم المساعدة فى هذا الشأن .

منهج البحث العلمى

يبحث هذا الكتاب العلاقات الدولية على انها علم من العلوم البحتة لا على أنها علم من العلوم الانسانية أو فن من الفنون .

ويجب علينا أن نكون حذرين فلا نبالغ ، اذ أن العلوم الاجتماعية بوجه عام والعلاقات الدولية بوجه خاص لا يزال أمامها طريق طويل حتى تصبح علوما بحتة مثل الطبيعة أو الكيمياء . وأصبحت مسألة امكاننا تسميتها علوما بحتة موضع الجدل والنقاش ، الا أن هناك طرقا صحيحة برهنت وستبرهن دائما على أن انتهاج البحث العلمى فى العلاقات الدولية أمر عظيم الفائدة .

ويجب أن تتميز هذه الدراسة بخصائص معينة حتى تصبح دراسة علمية .

وأول هذه الخصائص أن تكون الدراسة مطابقة للعقل وتتمشى هى وقواعد التفكير المنطقى . وقد تميزت معظم الدراسة الجديدة فى ميدان العلاقات الدولية بهذه الحقيقة .

وثانيها أنه يجب على أية دراسة علمية أن تهتم بالحقائق التجريبية . أى أنه يمكن اختبارها بدليل تفطن اليه الحواس ويختلف العلم فى هذا عن الفلسفة التى يمكن أن تقصر اهتمامها على الأفكار والنظريات التى لا يمكن قبولها أو رفضها عن طريق أى اختبار تجريبى وقد جاءت معظم الدراسات فى ميدان العلاقات الدولية معتمدة على الفلسفة سواء أكان ذلك اعتمادا كليا أم جزئيا . وخاصة تلك البحوث الكثيرة التى اهتمت أولا وقبل كل شىء بما ينبغى أن يوجد من صنوف العلاقات الدولية على ضوء بعض القيم الموضوعة (أو غير الموضوعة فى أغلب الأحيان) .

أما هذا الكتاب فيعتبر دراسة لذلك النوع من العلاقات الدولية التى توجد الآن فعلا ٠

وطبيعى أن يضع كل باحث مجموعة خاصة من القيم نصب عينيه ٠ فانها تساعده على تحديد الظاهرة التى ينتخبها لتكون ميدان دراسته ٠ ومن المؤكد أن قيم الآخرين تحدد مدى المنفعة التى يمكن أن ينبثق عن اكتشافاته ٠ غير أن العالم أثناء بحثه يضع قيمه جانبا ويبدأ فى تناول مادته تناولا موضوعيا ، كما لو كان لا يبالى بما اكتشفه ٠ فقد يدرك عالم النبات تمام الادراك الطريقة التى يعتقد هو أنه ينبغى أن ينمو القمح بها ، ولكنه لن يوفق فى الكشف عن سلالات أفضل ما لم يفطن أولا الى الطريقة التى ينمو بها القمح فعلا ٠ وقد يكون لدى الباحث فى علم الطب فكرة واضحة تماما عن الطريقة التى يريد أن تنتجها الجراثيم ولكنه لن يضيف جديدا الى مضمار التقدم الطبى ما لم يكشف أولا عن الطريقة التى تنتجها الجراثيم فعلا ٠

وتنطبق هذه القاعدة نفسها على الباحث فى العلوم الاجتماعية ، ولو أنها لا تنال دائما ما تستحقه من اكبار واجلال ٠ فمن اليسير أن تعمينا قيمنا الخاصة عما حولنا ، ولا ترينا الا مانريد نحن أن نراه ، ولكن هذا النهج لا يضيف شيئا جديدا الى سيطرة الانسان على بيئته الاجتماعية وقد تكون أسمى الغايات الاجتماعية التى يطمح الانسان الى تحقيقها بطريق العلم هى

تمكينه من أن يروض بيئته بحيث تصبح أكثر تمشـيا مع قيمه الخاصة ، ولكنه لن يستطيع ترويضها ما لم يفهم أولا الطـريقة التى تسير بها ، وأفضل السبل الى تعلم ذلك هو انتهاج البحث العلمى .. ولا يزال أمامنا طريق طويل حتى نفهم الأمور التى تقرر السلوك الاجتماعى عند الانسان ولكننا سـنزيد من سرعة فهمنا لها اذا تعلمنا أن ننظر الى السـلوك البشرى بطـريقة موضوعية . ولقد بذلنا جهودا صادقة فى هذا الكتاب لكى ننظر الى الحقائق بطريقة موضوعية ، وأن نتتبعها حيثما تقودنا ، حتى عندما تكون اكتشافاتنا مبلبلة مقلقلة .

فلابد أن يكون العلم تجريبيا ومطابقا للعقل ، غير أن هذا ليس كافيا فى حد ذاته . فلا يجب أن يقتصر العلم على وصـف الحقائق بل عليه أن يفسرها ويشرحها ، وهذا يتم عن طريق وضع النظريات التى تتسم بسمات عامة تماما ، والقواعد أو القـوانين المجردة التى تنتهج الظواهر التجريبية منهاجا مطابقا لها . واذا ثبتت صلاحية النظرية وجبت صياغتها بطريقة تسمح باختيارها بالدليل التجريبى . واذا كانت النظرية صحيحة وجب اجراء كل اختبار عليها دون استثناء والواقع أننا لا نكاد نجد نظرية من نظريات العلاقات الدولية تصمد أمام هذا الاختبار ولكن هذا النوع يعتبر من النظريات التى يجب أن نهدف الى وضعها .

ويدور البحث فى هذا الكتاب حول الأحداث الحاليـة

والأخيرة الى حد كبير . وهى الأحداث التى تفترض أن القارىء على المام بها . وليس هذا الكتاب تاريخا للأحداث الأخيرة . ولكن الحوادث والقضايا الواقعية التى نسوقها هنا استخدمت على سبيل المثال ولتساعدنا على اختبار المسائل العامة التى نعرضها ونحن ندعو القارىء الى أن يرجع الى القضايا الأخرى حيثما وجد بينها وبين ما نسوقه بعض العلاقة . على أن ما يوليه هذا الكتاب اهتماما خاصا هو البحث عن القواعد العامة والنظم الرتيبة والقوالب التى تتكرر فى حال بعد أخرى ، بل هو البحث فى ناحية أكثر عمقا . وهى البحث عن التفسيرات السببية التى تكمن وراء هذه النظم الرتيبة .

ويحتوى هذا الكتاب على قدر ضئيل من الفلسفة اذ أن للقيم طريقة خاصة تقحم بها نفسها مهما حاول الانسان فى حرص بالغ أن يعزلها جانبا . كما أنه يحتوى على قدر كبير من الوصف . وهو يضم قليلا من « القوانين » ولكنه يحوى عددا كبيرا من التعميمات والفروض التى تعتبر الخطوة الأولى فى تكوين النظرية وقد تكون بعض هذه التعميمات فى صورة مشوهة تحتاج الى الصقل والتهذيب . كما أنه من المحتمل أن تكون بعض الفروض خاطئة تماما ، والقارىء مدعو الى أن يهذب ويصحح كلما أمكنه ذلك . اذ أن المعرفة لا تنمو وتنضج الا بهذه الكيفية فالبداية

دائما لابد أن تكون مشوهة مهتزة ثم يعقبها الصقل والتهذيب فيما بعـــد .

المنهج التنظيمى

ويلتمس هذا الكتاب أيضا منهجا تنظيميا واهتمامه الرئيسى منصب على السياسة بالطبع . ومن المعترف به منذ قديم الزمان أن العلاقات الدولية تدخل فى نطاق علم السياسة . ولا يخلو هذا من سبب فان الدولة ــ على كل حال ــ وحدة سياسية أولا وقبل كل شىء ، وتهتم دراسة العلاقات الدولية أساسا بالعـلاقات السياسية بين الدول وبالدبلوماسية والحروب والصراع من أجل القـوى .

الا أن علم السياسة فى حد ذاته لا يكفل جميع الآراء التى لابد منها لفهم العلاقات بين الدول الحديثة فهما تاما . وعلى كل حال فان جميع العلوم الاجتماعية تعالج هذه المادة الخام نفسها . وهى السلوك الفعلى للبشر فى علاقات بعضهم ببعض . وعلاقاتهم ببيئتهم . ولكن كلا من هذه العلوم يعالج مظهرا واحـدا من هذه العلاقات البشرية والطرق التى يشرف بها الأفراد والجماعات على سلوك الآخرين . والنظم التى يتم عن طريقها مباشرة مثل هذا الاشراف ، ويتناول علم الاقتصاد الوسائل التى ينتج بهـا البشر الثروة وكيفية توزيعها واستهلاكها كما يتناول النظم التى ينتج بها البشر الثروة وكيفية توزيعها واستهلاكها كما يتنـاول

النظم التى تنسق بين هذه العمليات . أما علم الاجتماع ـ وهو من العلوم الراقية ـ فيتضمن كلا من السلوك السياسى والاقتصادى داخل دائرته كما يشتمل على نواح أخرى مثل حياة الأسرة والدين والتسلية . غير أنه يركز جل اهتمامه حول بناء الجماعات وحول الاشراف عليها أكثر من اهتمامه بالأفراد . ويعالج علم النفس سلوك الفرد ومواقفه والعوامل التى تقرر هذا السلوك وتلك المواقف . ويتخذ علم النفس الاجتماعى ميدان نشاطه فى الحد الفاصل بين علم الاجتماع وعلم النفس . وتصبح الجغرافيا ـ التى هى علم طبيعى أساسا ـ من العلوم الاجتماعية عندما تبحث فى تأثير الجغرافيا على حياة الانسان . والطرق التى استطاع بها الانسان بدوره أن يغير المعالم الطبيعية لوجه الأرض.

وكل من هذه العلوم ذو قيمة فى حد ذاته . وكل منها يستلزم وجود أخصائيين يركزون نشاطهم على مناطق محدودة منه نسبيا . غير أننا ندرك شيئا فشيئا أن من الأفضل أن يقوم بدراسة الموضوعات المتعددة رجال قادرون على تخطى الحدود التقليدية بين العلوم المختلفة أو عن طريق التعاون بين المختصين فى مختلف الميادين وينطبق هذا بوجه خاص على المشكلات العلمية المادية التى توضع موضع البحث أو عند محاولة التكهن بوقوع أحداث فعلية فى المستقبل ، أو عند البحث عن العوامل المقررة لتصرف بشرى بعينه .

والواقع أن البحث عن العوامل التى تحـدد تصرفا ما فى مجال بعينه يقود الباحث فى أغلب الاحيان الى طرق عدة مجالات أخرى . فمن المؤكد مثلا أن سلوك الناخب ظاهرة سياسية ، بيد أن الدراسات الحديثة قد أثبتت أن الطريقة التى يقترع بها المرء لا تتقرر وفقا لفلسفته السياسية ووفقا للأعمال السياسية التى تقوم بها الأحزاب والمرشحون فحسب ، ولكنها تتقرر أيضا ـ أو بالأحرى أنها تتقرر أساسا ـ وفقا لطبقتـه الاجتماعية ولدخله ولدياناته ووفقا للجماعة العنصرية أو الشـعوبية التى ينتمى اليها كما يلعب علم النفس دورا خاصا فى سلوك الناخب .

وبالمثل برهنت البحوث التى تجرى فى الأسواق على أنه لا يجوز تفسير طلب المستهلك للسـلع عن طريق النظـريات الاقتصادية أساسا ، اذ أن المسـتهلك الفعلى على النقيض من « رجل الاقتصاد » النظرى ـ يتأثر فى مشـترياته الى درجة كبيرة برغبته فى تحسين حالته الاجتماعية . كما يتأثر بعـدة اعتبارات نفسية .

ولا تتأثر نسبة المواليد أيضا بعوامل اجتماعية ونفسـية فحسب ـ علما بأنها ظاهرة يدرسها علماء الاجتماع المختصين فى عدد السكان ـ بل انها تستجيب بشكل ملحوظ أيضـا للأحداث الاقتصادية مثل حالات الكسـاد . كما تستجيب

للأحداث السياسية مثل الحروب وهكذا يمكننا أن نضرب أمثلة كثيرة من هذا النوع .

وواضح تماما أن هناك حاجة الى اتباع نهج تنظيمى فى دراسة العلاقات الدولية فان الوحدات الكبرى التى يجب دراستها وتعنى بها الدول ـ ليست دولا ذات كيان سياسى فحسب ، ولكنها وحدات جغرافية واجتماعية واقتصادية كذلك . وفوق كل هذا فهى جماعات من الأفراد تربطها معا روابط سيكلوجية قوية . ولا يجب أن تفسر تصرفاتها فى الميدان الدولى على ضوء القوة وحدها . فحتى القوة ذاتها مهما بدت وكأنها ميزة سياسية خاصة تتصف بها الدول ـ لا يمكن فهمها دون الرجوع الى عدة مجالات أخرى . لأن قوة أية دولة تتحدد وفقا لعوامل معينة مثل عدد سكانها ومستوى تطورها الاقتصادى

ويعنى هذا أننا نقول ان على الباحث فى العلاقات الدولية أن يكون عالما خبيرا فى علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس الاجتماعى ، الجغرافيا مجتمعة كلها فى علم واحد ، ولكن ينبغى عليه ـ على أقل تقدير ـ أن يكون على معرفة يسيرة بهذه العلوم . وسيكون من المفيد له جدا اذا استطاع أن ينمى منذ البداية وجهة نظر تنظيمه بينها جميعا . ويحاول هذا الكتاب أن ينمى مثل هذه النظرة ، فيبدأ بمستوى يمكن أن يفهمه الباحث الذى لم يصبح بعد مختصا فى أحد هذه العلوم .

محتويات الفصول التالية

سنتناول فى الفصول التالية نطاقا واسعا من الموضوعات • وينقسم الكتاب الى ثلاثة أقسام رئيسية : أحدها يتنـاول الدولة وخصائصها ، والثانى يبحث فى العلاقات الدولية ، والثالث يتناول المنظمات الدولية • ثم يعقب ذلك خاتمة توجز النقـاط التى توصلنا اليها والأمور التى تتكهن بها •

ونبدأ أولا ببحث الوحدة الأساسية لجميع العـلاقات الدولية ، وهى الدولة ، فنمضى فى تحديد الأمور التى تجعـل من هذه الجماعة من الناس وحدة بذاتها • وسنكشف عن المميزات والمشاعر التى يشترك فيها المواطنون ، ونبحث طبيعة هذه الروابط التى تربط بعضهم ببعض • وسندرك أن أهمية الدولة تزداد أو تتناقص وحدة شاملة أكبر منها مثل الاتحاد الاقليمى أو الدولة العالمية •

وسنبحث بعد ذلك خاصتين من خصائص الدول تعتبران ذاتى أهمية خاصة فى تقرير سلوكها الدولى ، وأهدافها وقوتها القوميتين • فان الدول جميعها لا تهـدف الى تحقيـق الأهداف نفسها ، وسنخصص فصلا بأكمله لنبحث فيه صفوف هذه الأهداف المختلفـة التى قد ترمى الدول الى تحقيقها • ويتناول الفصل الآتى العوامل التى تحدد الأهداف القومية • لماذا تنزع بعض الدول نزعة حربية على حين تجنح دول أخرى للسلم

مهما كلفها ذلك ؟ لماذا تسعى بعض الدول الى فرض أيديولوجياتها على الدول الأخرى على حين لا تطلب دول أخرى سوى أن تترك هى وشأنها ؟ لماذا تهدف بعض الدول الى تحقيق أهداف تتسم بسمات قومية محدودة على حين ترمى دول أخرى الى تحقيق أهداف انسانية شاملة ؟ سنحاول أن نجد اجابات عن هـــذه الأسئلة جميعها •

وسوف نكرس جل جهودنا لتحليل القوة القومية وتحديد مفهوم القوة ببعض التفاصيل ثم نناقش العوامل المشكلة للقوة آخر الأمر • كما أننا سندرس تأثير هذه العـــوامل من حيث الجغـرافيا (أو الموقع) والموارد وعدد الســـكان والتطور الاقتصادى ، والتكوين السياسى ، والروح المعنوية القومية ، ثم نقرر أن من هذه العوامل ما يعتبر بالغ الأهمية ، ونضع معيارا يمكن به قياس قوة دولة ما • وسوف نصف أخيرا الوسائل التى تتيح للدولة المتخلفة زيادة قوتها الى أقصى حد ممكن ، وكما نبين لذلك أفضل الوسائل التى تتيح لدولة ما مثل الولايات المتحدة المحافظة على ما تنعم به من تفوق فى مجال القوة •

ويتناول القسم الثانى العلاقات بين الدول ، فيبدأ بوصف أنواع الصلات التى تتميز بها المعاملات بين الدول القوية والدول الضعيفة ثم يتناول العلاقات بين الدول الكبرى •

ويسترعى الاستعمار أنظارنا أولا على اعتبار أن ذلك النوع

من الصلة التى تنشأ عندما يكون التباين فى القوة بين أى وحدتين سياسيتين كبيرا للغاية . وغالبا ما تتحاشى الدول الحديثة أن تطلق على مستعمراتها لفظ « مستعمرات » ، بيد أننا سنحاول أن نحدد هذه العبارة بطريقة تشمل هذه المستعمرات كلها . كما سنبحث مسألة كون المستعمرات اليوم مصدرا للربح أو للخسارة بالنسبة للدول التى تحكمها ، وسنحدد الخطوات التى تتيح للمستعمرات تحقيق استقلالها ثم نشرح بعد ذلك السبب الذى دعا الى أن بعض هذه المستعمرات قد حررت نفسها منذ وقت طويل على حين لم تقم المستعمرات الأخرى ببذل الجهود لتحقيق حرياتها الا فى الوقت الحاضر . ونحن لم نكتف بدراسة الاستعمار السياسى الرسمى ، ولكننا سنبحث أيضا الأشكال الحديثة التى بدأت تحل محله ، ثم تناقش كلا من التكافل الاقتصادى للولايات المتحدة وللدويلات التابعة للاتحاد السوفييتى . كما أننا سنوجه عناية خاصة لاستهواء الشيوعية للمستعمرات السابقة التى نالت استقلالها من الغرب أخيرا ، وأخطار الشيوعية على تلك البلدان .

ويحتوى الكتاب على قسم له أهمية خاصة وهذا القسم يناقش موضوع توازن القوى ويعرض اقتراحا بوضع نظرية جديدة تأخذ مكانه . ونظرية توازن القوى هى احدى النظريات العملية القليلة فى ميدان العلاقات الدولية . وقد تناولتها هنا فى

موضع نقد شديد على أنه من حق القارىء أن يخالفنى فى ذلك .
ثم بعد أن ينبذ الكتاب نظرية توازن القوى ـ يشرع فى ايضاح رأى بديل عن الطريقة التى تتوزع بها القوى بين الدول ، ثم يتتبع نظاما مألوفا يتكرر دائما فى العلاقات الدولية أطلقنا عليه عبارة « تحول القوى » . ونبحث فى هذا الفصل أيضا الأسباب الأساسية للحرب والظروف التى يكون من المحتمل جدا أن تنشب فى ظلها . كما أوردنا تقديرا لأهمية الحرب فى تغيير مجرى العلاقات الدولية .

ويتناول القسم الثالث المنظمات الدولية . فيبحث فى فصل تمهيدى فكرة الامن الجماعى ، وهى آداة اقترحت كوسيلة للمحافظة على السلام الدولى ، والتى من أجل وضعها فى حيز التنفيذ أنشئت عصبة الأمم بوجه خاص ثم هيئة الأمم المتحدة بعد ذلك . أما الفصل التالى فيتركز حول القوى المتعارضة فى السيادة القومية والتكافل الدولى ، ويبين كيف أن محاولة التوفيق بين هذه القوى قد أثمر فى تكوين المنظمات الدولية وسلطاتها واجراءاتها . ثم يتناول الفصل الأخير عمل عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة ببعض التفصيل ، ويبين ما يمكن أن ـ تتوقعه ـ وما لا يمكن أن تتوقعه ـ من هيئة الأمم المتحدة .

وفى الخاتمة يستعرض الكتاب النماذج الهامة للعلاقات الدولية التى عرضناها فى صفحاته ، والتى تقيم على أساسها

بعض التكهنات عن المستقبل . هل ستستمر الدول فى أن تكون الوحدات الهامة فى شئون العالم ؟ وكيف يتغير توزيع القوى بين الدول فى الأعوام القادمة ؟ وهل ستحتفظ الولايات المتحـــدة بزعامتها الحالية للعالم ؟ هل ستنشب حرب عالمية ثالثة ؟ لن نكون مندفعين بحيث نجرؤ على ايجاد اجابات عن هذه الأسئلة جميعها .

الفصــل الثــانى

الدول والقوميــــــات

ان القصة التى نوشك أن نوردها الآن هى قصة الدول • فالدول لها شخصيات معنوية بارزة ، وســـنبحث هنا أعمالها وأهدافها وخططها وقوتها وممتلكاتها والعلاقات فيما بينها •

ولقد سلك الناس فى الأعوام الأخيرة مسلكا مشينا — باسم شرف الدولة والأمانى القومية والدفاع القومى — حتى اننـــا نجد أن هناك دافعا قويا يدعونا الى أن نعتبر مشاعر القومية قوى شريرة ، وأن الدولة ليست سوى صورة مؤسفة للتنظيم السياسى• وعلى كل فالدول هى التى حارب بعضها بعضا بعنف وقسوة ، وتسببت فى قتل وتشويه ملايين الناس وأطاحت بالمدن وبالقرى فى أوروبا وآسيا فى حربين عالميتين ، والدول أيضا هى التى تقف اليوم متحفزة مرتابة تسيطر عليها روح العداء ، وينتابها القلق عندما يسود السلام فتحتفظ بالقوة لكى تطيح بالعــــالم اذا ما اقتضى ذلك مصلحتها القومية • وليس هناك ما يدعو الى العجب فى أن النفوس التى تعشق السلام أو بعض النـــاس من ذوى الأعصاب المتوترة يطالبون فى بعض الأحيان بقيام صورة ما من

التنظيم السياسى لا تنطوى على مثل هذا القدر من القـــوى المتفجـرة •

ولقد ساد الاعتقاد بأن الحكومات القومية لا تنطوى على الخطر فحسب ولكنها أيضا أصبحت عتيقة بالية ، وأن الأسلحة الحديثة ، والتجارة الحديثة ، ووسائل المواصلات الحديثة قد جعلت شعوب العالم يعتمد بعضها على بعضها الآخر الى حد يجعل من المضحك أن تنقسم هذه الجماهير تقريبا مائة وحدة سياسية مستقلة • وقد يقال انه ليس هناك سوى عدد محدود من الدول التى لها حق تقرير مصيرها ، أما بالنسبة لبقية دول العالم فان الاستقلال القومى والسيادة القومية يعتبران من قبيل الأساطير • وأن الاضطرابات التى تسود العصر الحالى ، والسخط المتزايد على التنظيمات القومية ، وتطور المؤسسات الدولية الحديثة ــ كل هذه تعتبر دليلا على أن هذه الحقبة من التاريخ التى تتكون فيها كل دولة من أمة واحدة تقترب الآن من نهايتها ، وأننا على وشك أن نشهد بداية حقبة جديدة •

وربما كان هذا صحيحا • الا أن اعداد الجنازة يقتضى وجود جثة ، وسواء تطور الأمر الى الأفضل أو الأســوأ ، فان الدولة لا تزال تحمل دلائل واضحة على أنها تنبض بالحياة • فلا تزال الأعلام ترفرف ، ولا تزال الأناشيد القومية تدوى ، ولا تزال الجيوش تتقدم • وما زال النقد الذى يوجه للدولة من الخارج

يثير كبرياء الأمة ، وأى هجـــوم يأتى عليها من الخارج يوحد صفوف الدولة فى يوم واحد . وأن الحروب التى أثارت مخاوفنا الفكرية فيما يتعلق بفضائل التنظيم السياسى القـــومى هى التى ملأت أيضا قلوبنا بمشاعر الوطنية نحو دولنا . فانجلترا ـ التى قذف بها فى الوحل أعداؤها القوميون فى الحرب العالمية الثانية ـ خرجت من الحرب وهى أعظم فخرا بقوميتها أكثر مما كانت فى أى وقت مضى . والألمان الذين دفعهم تطرفهم القومى الى دخول حرب تركت بلادهم منشقة على نفسها وترزح تحت عبء الاحتلال الأجنبى ـ تنتظر الآن بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى يمكنهم فيه جميعا أن يتحدوا فى أمة واحدة مرة أخـــرى . والأمريكيون ـ الذين خرجوا فجأة من عزلتهم وبدءوا يشـــعرون بضرورة تعاملهم مع بقية دول العالم ـ لم يفقدوا شيئا من شعورهم بأنهم يختلفون عن غيرهم بل يمتازون عنهم بعض الشىء لأنهم أمريكيون، وأن انعدام ثقتهم فى كل ما هو « غير أمريكى » قد تزايد .

ولا تقتصر مشاعر القومية على الدول العتيقة الراسخة فى كل من أوروبا وآسيا . ففى غضون القرن العشرين بدأت مناطق بأكملها من الدول الجديدة تأخذ مكانها فى خريطة العالم . وفيما يلى قائمة بأسماء الدول الحديثة التى تكونت منذ عام ١٩٠٠ : ـ

أولا فى أوروبا : النرويج ، فنلندا ، لاتفيـــا ، ليتوانيا ، أستونيا (وهذه الدول الثــلاث الأخيرة قد ابتلعها الاتحـــاد

السوفييتى مرة أخرى) ، بولندا (وهى دولة قديمة انبعثت من جديد) ، تشيكوسلوفاكيا ، النمسا ، المجر (وهذه امبراطورية قديمة تقسمت) ، يوغوسلافيا ، ألبانيا ، بلغاريا ، أيسلاندا ، أيرلندا ، وفيما وراء البحار تكونت : استراليا ، نيوزيلندة ، اتحاد جنوبى أفريقية، وكذلك فى الشرق الأوسط ظهرت: مصر (١) العراق ، العربية السعودية ، اليمن ، البحرين ، الكويت ، سورية ، لبنان ، الأردن ، اسرائيل ، وعلى طول الساحل الجنوبى والشرقى لآسيا ظهرت : الهند ، الباكستان ، سيلان ، بورما ، لاوس ، كامبوديا ، فيتنام ، فيتمنه ، الملايو ، أندونيسيا ، الفليبين ، كوريا الشمالية ، وكوريا الجنوبية وكذلك جمهورية المغول فى الداخل .

وها هى ذى أفريقية تبعث دولا جدبدة مثل : ليبيا ، تونس ، مراكش ، السودان ، غانا ، نيجيريا .

كما تضطرم نيران القومية فى جميع أنحاء العالم التى ما زالت تعانى من نير الاستعمار ، فالجزائريون لا يعتبرون أنفسهم من الفرنسيين ، مهما قال المشرعون الفرنسيون فى هذا الموضوع ، كما فضل المجريون ــ الذين يتمتعون بالاستقلال اسميا فقط ــ الموت على الخضوع لحكم الروسيين ، كما هو الواقع .

والواقع أنه يبدو غريبا أن ينظر المرء الى العالم اليوم ثم

(١) توحدت مصر وسورية منذ أكثر من عام فى « الجمهورية العربية المتحدة »

يدعى أن مشاعر القومية والدولة ذات الأمة الواحدة تنقرض اليوم أو تتــلاشى .

وليس هناك بالطبع أى سبب يجعلنا نفتـــرض أن الدول ستظل قائمة الى الأبد فهى ليست ظواهر طبيعية ، كما أنها ليست مظاهر خالدة . فلقد أنشأها البشر ، وفى مقدور البشر أن يحطموا الأشياء التى أوجدوها ويحلوا محلها أشكالا أخرى من التنظيم الاجتماعى اذا أرادوا ذلك . بل انه من المحتمل أن يحدث هــذا الأمر مستقبلا .

على أن الدولة فى الوقت الحاضر هى الصورة الســـائدة للتنظيم السياسى . والوحدات المحلية تخضع لها ، أما المنظمات الدولية فما زالت حتى الآن ضعيفة عاجــزة ومن يريد أن يفهم العالم الحديث ولا سيما تكوينه من حيث القوة يتحتم عليـــه بالضرورة أن يتناول الدول . فهى التى تلعب الأدوار الرئيسية على مسرح السياسة العالمية ، وسنبدأ الآن بدراستها .

الافراد والجماعات والدول

قد يقال انه لا ينبغى أن تستحوذ الدول على جل اهتمامنا ، اذ أننا يجب فى الواقع أن نتناول أفراد الجنس البشرى أنفسهم . فالدولة ـــ على كل حال ـــ لا تعدو كونها نطاقا معنويا محددا يضم جماعة كبيرة من الأفراد الذين يشتركون فى بعض الأشياء والذين يختلفون فى كثير منها ، أو جماعة تجمع بين أفرادها بعض

المصالح المشتركة ولهم أيضا بعض المصالح الخاصة ، أو جماعة تشعر أحيانا بشعور جارف نحو الوحدة ، لا تشعر أفرادها أحيانا انها فى انسجام تام أوتعمل أحيانافى تحقيق أغراض متعارضة، وربما يبدو مستحسنا القول بأن أمريكا تبدأ الآن فى مباشرة زعامتها للعالم ، أو أن الهند تلعب دور صانع السلام أو أن روسيا تهدد السلام العالمى ، ولكنا عندما ننظر الى أفراد المواطنين فى هـذه الدول قد نراهم مختلفين تماما . فهناك كثير من الأمريكيين لا يتزعمون أحدا . بل هم يحيون حياتهم البسيطة ويولون جل اهتمامهم كسب العيش ورعاية عائلاتهم وقد يمرحون من وقت لآخر الا أنهم لا يقرءون سوى القليل عن الأحداث الدولية فى الصحف اليومية .

وهم ــ فى العادة ــ يشتركون فى الانتخابات ويكونون جزءا من ذلك الكيان الغامض الذى يسمى بالرأى العام ، ولكنهم لا يبحثون السياسة الخارجية ، بل لا يتخذون موقفا محددا تجاه بقية العالم . ومن المؤكد أنهم ليسوا زعماء العالم أو قادته .

دعنا ننظر الى شعب الهند . فقد يحـاول الزعمـاء والدبلوماسيون الهنود أن يكونوا صانعى السلام ، ولكن كم من الملايين فى الهند تعرف الكثير عن الشيوعية أو الديمقراطية ، أو عن الصراع بين الشرق والغرب ؟ وكم من أفراد الشعب الروسى يتعرضون بالأذى أو التهديد للغير ؟ أليس من المحتمل أن يكونوا

أكثر اهتماما بمشكلات حياتهم اليومية الفردية من اهتمامهم بدور روسيا فى السياسة العالمية ؟

من المؤكد أنه من الخطأ أن يفكر المرء ويكتب عن الدولة كما لو كانت مجموعة من الناس يفكرون ويتصرفون كفرد واحد ويشتركون فى جميع الآراء التى يعبر عنها قادتهم • وسوف يكون من الخطأ الشنيع أيضا أن تتناول الزعماء القوميين بصفة كونهم أفراد لا يمثلون أحدا غير أنفسهم • ففى وسع الزعماء القوميين أن يكلفوا — بل هم يكلفون المواطنين فى دولهم بالقيام بكثير من الأعمال ومن بينها شن الحرب • حقا ان الأفراد وحدهم هم الذين يمكنهم أن يتصرفوا ويشعروا ويتكلموا ويشكلوا السياسيات ويهددوا أو يهاجموا، وان كانت فئة ضئيلة من الزعماء هى التى تشكل السياسات وتتكلم باسم الدولة ، ولكن الى الحد الذى يقوم فيه المواطنون فى هذه الدولة بتعضيد هذه الكلمات بالأفعال ، والدولة هى التى تتصارع هى وغيرها من الدول وليس مجرد تلك الفئة من الزعماء أو مجموعة الأفراد • فربما لا يكون هناك شجار أو خلاف شخصى بين هذا الشخص أو ذاك ، ولكن كلا منهما سيبادر الى قتل زميله اذا قامت الحرب بين دولتيهما •

ولن تفهم على الاطلاق السبب الذى دفعهما الى هذا

العمل ، أو كيف يمكننا أن نمنعهما من القيام به ، اذا نحن قصرنا بحثنا على خصائص كل من هذا الشخص أو ذاك •

ولا يبقى أمامنا الا أن نشرح لماذا نعطى الدولة — من بين سائر الجماعات التى ينتمى اليها الناس — كل هذا القدر من الأهمية • فان كل فرد يشترك هو وأفراد هذه الجماعة أو تلك فى بعض الصفات فهو يشعر بأنه فرد فى عدة جماعات مختلفة ، ويشعر بولائه لكثير منها وأحيانا يتضارب هذا الولاء • ولا تبلغ عضوية معظم هذه الجماعات القدر الذى تبلغه عضوية الفرد فى الدولة ، فبعضها تكون جماعات أصغر من الدولة أو أكبر منها ، وبعضها يتعدى الحدود القومية • فمثلا ينتمى الفرد لأسرة ما أو الى جماعة من الأصدقاء ، أو الى جماعة من الجيران ، أو الى جماعة العمل مهما اختلف نوعها — وهذه كلها جماعات صغيرة — وأن المطالب التى تفرضها هذه الجماعات على ولائه ، ووقته ، ومجهوداته تكون فى الغالب أكبر من تلك المطالب التى تقتضيها منه الدولة • والواقع أن الدولة — وقت السلم — لا تتطلب من الفرد سوى قليل من المطالب حتى انه قلما يشعر بها فعلا •

كما ينتمى الفرد أيضا الى جماعات أضخم حجما من دولة • فهو قد يكون أوروبيا أو أمريكيا من دول أمريكا اللاتينية • وكثير من الناس فى العالم يعتبرون أفرادا ينتمون « للعالم الحر »

وجميعنا ــ سواء أردنا أن يرتبط كل منا بالآخر أو لا ــ أفراد ننتمى للانسانية .

ولا تزال هناك جماعات أخرى ينتمى اليها الفرد ، وهى تتعدى الحدود القومية فتربط بينه وبين بعض الناس فى الدول الأخرى بل تعزله أحيانا عن بنى وطنه . فهذه طبيعة الجماعات الدينية ، والجماعات الطبقية ، والجماعات العنصرية ، فقد يشعر المرء برباط وثيق بينه وبين اخوانه الكاثوليك ، أو رفاقه من البروليتاريا (أو الأجراء) ، أو اخوانه البيض حتى لو كان بعضهم لا يشترك معه فى جنسيته .

وكل هذه الجماعات لها أهميتها . ولها جميعا مطالب تفرضها على الفرد فتساعد على تحديد مواقفه وتصرفاته . الا أننا يجب أن نلاحظ أن هذه الجماعات كلها لا تعارض الدولة . فان الجماعات الصغيرة تدخل فى الغالب داخل نطاق الدولة بوجه عام ، ومن النادر نسبيا أن يجد الفرد أن أسرته أو دائرة أصدقائه أو جماعة عمله تضم أناسا ينتمون الى جنسية غير جنسيته . وقد يشعر بزهو وكبرياء عند ذكر أسرته ، وهذا الاحساس يقويه ــ أو يضعفه ــ شعوره بأنه ينتمى الى أسرة امريكية (أو يابانية أو أيسلاندية) . وقد يجد أن روابطه بأصدقائه تتوطد لعلمه أنهم جميعا ينتمون الى أصل ألمانى أو ايرلندى أو فنلندى ، وقد يكون هناك بعض التعارض فى

المصلحة بين هذه الجماعات الصغيرة والدول الكبرى التى تكون هذه الجماعات جزءا منها . فهل ينبغى مثلا على الشـــاب أن ينخرط فى سلك البحرية أو أن يظل فى بيته يرعى أمه ؟ هل ينبغى عليه أن يبيع بضاعته للجيش بأرخص قدر ممكن أو أن يركز جهده ــ فى توقيع العقود أثناء الحرب ــ فى أن يزيد أموال شركته ؟ حقيقة أن كل هذه الأمور المتعارضة موجودة فعلا ، غير أن القطاع الذى تتلاقى فيه مصلحة هذه الجماعات الصغيرة والمصـــلحة القومية قد يكون أوســـع نطاقا من ذلك . وأن كونتا أمريكيين لا يعد سببا يبعث فى الغالب على القلق عند عائلاتنا أو أصدقائنا أو زملائنا فى العمل .

والجماعات الكبرى تكاد جميعا تكون متشابهة ، لا سيما تلك الجماعات التى تتألف من جماعات من الدول . ولا تعبأ الحكومة الأمريكية مطلقا اذا اعتبر الأمريكيون أنفسهم أعضاء فى العالم الحر ، فالواقع أنها ستسر اذا هم فعلوا ذلك . ولا تعارض الحكومة المصرية فى أن يعتبر المصريون أنفسهم جزءا من العالم العربى . فواقع الأمر أنها تستخدم هذا الشـــعور لتحرك نوعا ملتهبا من مشاعر القومية المتأججة . ولا تبدو هناك صعاب الا اذا سمح الأفراد بتغليب ولائهم للجمـــاعات ذات النطاق الكبير على ولائهم القومى فى حال نشـــوب نزاع بين دولتهم ودولة أخرى . فان مشاعر الوطنيـــة تقتضى أن يدين

الرجل الانجليزى بالولاء للتحالف الغربى الذى تشـترك فيه دولته ، ولكن لا يجب أن يدين له بالولاء الى الحد الذى يجعله يقف الى جانب أمريكا فى نزاعها ضد انجلترا لأنه يعتقد أن انجلترا تحطم بذلك هذا التحالف . وفى هذه الحال قد يجد المرء نفسه معرضـا لأن يتهم بموالاته لأمريكا ، لا بموالاته للتحالف ، وقد يكون الولاء للانسانية أكثر خطرا الى حد ما ، لأن الدولة التى ينتمى اليها الفرد غالبا ما تكون على غير وفاق مع بعض أعضاء المجتمع الانسانى ، وليس من المستحب أن يبدى الفرد اهتماما جديا بهؤلاء الأعضاء على وجه الخصوص ومع ذلك فان الولاء للانسانية شىء جميل طالما كان هذا الشعور يركز على الأفراد الذين ينتمون للدول الصديقة .

وأهم أنواع الجماعات أو الشـعور بالولاء تلك التى تتعدى الحدود القومية فانها قد تهدد وحدة الدولة تهديدا خطيرا فربما لا يقوم أحد رجال الأعمال الأنانيين بواجبه نحو دولته على الوجه الأكمل ، ولكن رجل الأعمال الذى ينتمى الى اتحاد صناعى يضم رعايا الأعداء قد يغرى بارتكاب الخيانة . وقد يكون العامل الخامل اللحوح بمثابة مصدر قلق لصاحب عمله ، ولكن العامل الذى تمتلىء نفسه بالسـخط والتبرم ــ والذى ينتمى الى حزب ثورى يتلقى معونة من دولة أجنبية ــ قد يرتكب عملا تخريبيا متعمدا ، وقد تكون المشاعر الدينية بمثابة

تأييد قوى المشاعر القومية ، كما هى الحال فى اليابان أو اسرائيل أو البلدان الأخرى التى فيها ديانة واحدة . وقد تساعد هذه المشاعر الدينية على ربط بعض مجموعات من الدول ببعض ، كما هى الحال فى أمريكا اللاتينية حيث تسود الكاثوليكية ، أو فى العالم العربى . ولكن هذه المشاعر قد تقسم الدولة على نفسها أيضا ، كما هى الحال فى هولندا وفى الولايات المتحدة . ولو الى حد ما . أما العداوات العنصرية فهى أكثر خطرا على وحدة الدولة من أى شىء آخر .

غير أنه يبدو أن المصالح القومية ومشاعر الولاء والاخلاص للوطن تتغلب فى معظم اللحظات الحرجة التى تمر بها البلاد . ففى وقت الحرب ، تبقى الأم وحدها فى البيت على حين ينخرط الابن فى سلك البحرية ، ويعاد النظر والبحث فى مختلف العقود ، وتقل الأرباح ، وتصادر ممتلكات الأعداء ، ويعدم المخربون . وقد يطلق الألمان الاشتراكيون الرصاص على الفرنسيين الاشتراكيين ، ويلقى الأمريكيون الكاثوليك بالقنابل على الايطاليين الكاثوليك ، ويتطوع سكان جنوبى أفريقية ليشكلوا كتائب العمل فى جيوش سادتهم البيض الذين يضطهدونهم أسوأ اضطهاد .

ولابد من شرح هذه المنظمات القومية وتلك المشاعر الوطنية اذا أردنا أن نفهم لماذا تشعر شعوب العالم ويتصرف كل

شعب تجاه الآخر بهذا الأسلوب . واذا كنا نبغى البحث عن وحدة للعمل من أجل تلك الجماعات الكبرى من الناس الذين يمكن معاملتهم كما لو كانوا يعملون معا فى مجال السياسة العالمية ، فانه يبدو من الواضح أن الدولة هى ميدان بحثنا ، فهى أفضل اختيارا من الأسرة أو الجوار أو الرابطة أو النقابة العمالية ، أو الطبقة الاجتماعية ، أو الكنيسة أو الجنس أو القارة أو الانسانية بوجه عام كيف تنشأ الدولة ؟

تحدثنا كثيرا عن الدول وأهميتها ولكننا حتى الآن لم نتحدث كثيرا عن تعريف الدولة . فما الذى يجمع بين جماعة معينة من الناس ويؤلف منهم وحدة ؟ وما المميزات والمشاعر التى يتقاسمها الأفراد فى الدولة ؟

الروابط السياسية

ان الدولة أولا وقبل شيء وحدة سياسية بل هى أكبر وحدة سياسية لا تعترف بوجود أية وحدة سياسية أخرى تعلوها والواقع أن أعضاء الدولة الواحدة يمكنهم بل انهم عادة ما يتشابكون فى أكثر من حكومة واحدة وأرض واحدة فقد يكون لهم جميعا اقتصاد مشترك ولغة مشتركة وثقافة مشتركة وأيديولوجية سياسية مشتركة وتاريخ مشترك .

وسنقوم ببحث كل من هذه النقط فى المجال المناسب .

ولكن يجب أن نلحظ أن كل هذه المميزات ليست عامـة وأن كانت عادية • فيمكن المرء أن يتوصل الى الكثير من الاستثناءات فى كل حال من الحالات فقد تكون هناك دول لا تسودها لغة مشتركة على حين يشترك جميع أعضائها فى تراث ثقافى واحد كما تتوفر فيها جميع المميزات الأخرى •

والخاصة الوحيدة التى يجب أن تتوفر فى جميع أعضـاء الدولة والتى لا يمكن استثناؤها هى انضـواؤهم جميعا تحت سلطان حكومة واحدة •

لذلك كان السلوك السياسى هو الذى يحدد حجم كل دولة وحجم سكانها ، وبالاضافة الى ذلك تلعب النظم السياسية دورا كبيرا فى الفصل بين الدولة والتمييز بينها وفى تقوية الوحدة فى الدولة وفى حمايتها من التدخل والهجوم من الخارج •

ولفصل الدولة عن بقية العالم تراقب الهيئات السياسية الحدود القومية والخطوط التقليدية التى تفصل الأراضى القومية والسكان عن العالم الخارجى وهى تشرف على تحركات الناس والسلع عبر الحدود كما تنظر فى طلبات الذين يريدون الدخول فى أراضى الدولة أو الانضمام لعضوية الجماعة القومية •

فلكى يتجنس الفرد بالجنسية الأمريكيـة أو الصينية أو الألمانية أو البرازيلية لابد أن يمر باجراءات سياسية خاصة وأن

تتوفر فيه شروط سياسية معينة • وتحتفظ جميع الحكومات لنفسها بحق رفض السماح بالدخول فى الأراضى أو رفض منح حقوق المواطن لأى فرد من خارج البلاد غير مرغوب فيه •

وتعمل الهيئات السياسية الوطنية أيضا على الحيلولة دون انفصال جزء من الشعب أو الأراضى عن الدولة • والقطر الوحيد الذى يمنح الوحدات الرئيسية اسميا حق الانفصال عن الدولة هو الاتحاد السوفييتى غير أن من يدرس السياسة الروسية يعرف أن هذا الحق مجرد لون من ألوان الخداع والتضليل •

ولقد ألغى حق الولايات الأمريكية فى الانفصال عن الدولة بالحرب ، هذا كما أن معظم الحكومات تنظر النظرة نفسها الى أية محاولة يقوم بها بعض المواطنين لاستيلائهم على الأراضى التى يعيشون فيها وفصلها أو انفصالهم عن سلطة الحكومة القومية •

بل ان حق الأفراد الذين يرغبون فى مغادرة الأراضى فى الانفصال عن الدولة محدود • فمهما بلغت الحرية فى أى بلد من البلدان فان منح جوازات السفر (التى لابد من الحصول عليها للخروج من الأراضى) هو حق تحرص عليه الحكومات •

وبينما تسمح بعض الحكومات لبعض المواطنين بالهجرة الى بلاد أخرى والى التجنس بجنسيات هذه البلاد فهناك حكومات أخرى لا تمنح جواز السفر أى شخص تظن أنه يريد أن يتحول عن ولائه لها •

ولكن بتهرب الفرد من مثل هذه الدولة يجب عليـه أن يخدع حكومته لتعطيه جواز السفر أو أن يهرب عبر الحدود على أن يجد حكومة قومية أخرى تقبله على الرغم من اعتراضات دولته الأصلية بمجرد أن يبعد عن المسئولين فى بلده الأصلى ، أى أنه يجب أن يخضع لسلطة دولة أخرى ولا يستطيع ببساطة أن ينفصل عن النظام الحكومى داخل الدولة .

وتقوم الحكومات بأوجه نشاط كثيرة متباينة توطيـدا للوحدة داخل الدولة ، وتعمل على ازالة العقبات أمام تحركات الأفراد والبضائع داخل أراضيها وعلى تحسين وسائل المواصلات الداخلية ونشر وتقوية الخصائص المشتركة بين الناس مثـل اللغة والثقافة والأيديولوجية السياسية وهى تحاول القضاء على الخصائص المحلية التى تتدخل فى الوحدة القوميـة وتعاقب الأفراد على ما يرتكبون من الخيانة التى تعتبر أبشع جريمـة سياسية يمكن ان يرتكبها انسان .

وتصدر الحكومات القومية وتنفذ كثيرا من القواعد التى تسمح للأفراد فى الدولة بالعمل معا دون تدخل أحدهم فى سبيل الآخر ودون اضرار أحدهم بالآخر أيضاء ويبدو من الواضح أن الحياة ــ بالذات فى الدول الصناعية الكبرى والمعقدة فى العصر الحديث ــ لا يمكن أن تسير الا اذا أصدرت الحكومة وتفذت

قوانين تتحكم فى استخدام الطرق البرية والحديدية والجـوية وفى استخدام محطات الاذاعة والتلفزيون وتتخذ موقفا من شأنه وضع حدود لنوع النزاع والبريد وقوانين تقيم معـايير الامن والنزاهة فى الانتاج وتوزيع السلع والخدمات وقوانين تنظم شئون النقد والبنوك وأسهم الشركات وغيرها تختص بتنظيم عـلاقات العمال وغيرها فى صالح العجزة والضعفاء .

وكل أوجه النشاط الحكومى هذه ضرورية لتسيير الاقتصاد بخطا منتظمة فى أنحاء البلاد ولتنمية الثقافة. وتساعد القواعد واللوائح الحكومية على تقليل المنازعات بين الأفراد الذين يعتمد كل منهم على الآخر .

وعندما تنشب المنازعات تقف الحكومة موقفا من شـأنه وضع حدود لنوع النزاع الذى يمكن السماح به وتســاعد على حله أو تفرض حلا للمنازعات التى لا يمكن تركها لحل خاص .

ومن المألوف فى هذا المجال من أوجه النشاط الحـكومى الالتجاء الى بعض الهيئات مثل المحاكم المكلفة بالقيام بهــذا الواجب .

والحقيقة أن اجراء تسوية المنازعات الهامة التى قد تفصم عرا المجتمع يتم فى كثير من الهيئات السياسية . ولا يشترك فى تسوية الخلافات المحلفون فى المحاكم بل الزعمـاء السياسيون

والمشرعون وكبار الموظفين فى الهيئات التنفيذية أيضا ـ هؤلاء جميعا يشتركون فى تسوية الخلافات لأن التوفيق فى الخلافات جزء لا يتجزأ من الاختصاص السياسى .

واذا كانت الأمور تسير على ما يرام فان الخلافات التى تنشب داخل الدولة دائما ما تحل دون استخدام القوة غير أن الحكومة تحتكر لنفسها القوة على شكل وحدات عسكرية وبوليسية . وحتى الجرائم لا يمكن أن تتحدى القوات الحكومية فانها ترتكب بقصد الهرب من الحكومة ، أما المواطن العادى فانه يرى أن هذا تحد للسلطة ولا جدال فى ذلك .

ان المصلحة الذاتية تدفع مواطنى الدولة الى العمل معا فترة طويلة من الوقت كما أن الاحترام للقانون والنظام مع المسئولين فى الدول الأخرى وهى التى تعبىء السكان وموارد الثروة فى الدولة فى حال نشوب حرب مع الدول الأخرى .

والدولة باختصار وحدة سياسية لأن العضوية فيها محددة بشروط سياسية والوكالات السياسية التى بها تتحمل مسئولية تحديد الحدود الاقليمية وتنظيم حركة عبور هذه الحدود وتقرر من الذى يمكن أن ينتمى الى الدولة ومن لا يمكنه أن ينتمى اليها وتحول دون انفصال الأفراد عنها وتقوى روابط الوحدة داخل الدولة بتشجيع التجارة الداخلية والمواصلات وسن

القوانين للمحافظة على السلام وحل المنازعات بالاستعانة بالقوة التى فى متناولها وتقديم الشعارات التى تمثل الدولة وحمايتها من المغيرين عليها •

الروابط الاقليمية

تتمتع الحكومة بالسلطان لا على جماعة من الناس فحسب بل على الاقليم الذى يعيشون فيه أيضا ، وباستثناء حالات قليلة ، تتألف أراضى الدولة من قطعة من الأرض أو مجموعة متقاربة من الجزر لا يمكن تجزئتها • فالباكستان مثلا يمكن استثناؤها اذ أنها تنقسم قسمين منفصلين ، وكانت ألمانيا أيضا منقسمة الى جزأين يفصل بينهما الممر البولونى • ولو أصبحت كل من ألاسكا وهاواى ولاية أمريكية لكانت الولايات المتحدة تتألف من ثلاثة أجزاء منفصلة والمستعمرات بالطبع بعيدة عن الدول التى تتبعها غير أن الدول كقاعدة عامة هى من مجموعات من الناس تعيش مجتمعة فى أقاليم متقاربة •

وقد يقال أحيانا ان الأفراد يشعرون بالارتباط بأرضهم الأصلية وان هذا الشعور نحو اقليم معين هو أحد الروابط التى تربط بين شعب الدولة • ولكن يبدو أن هذا الادعاء فيه بعض المبالغة فحنين الفرد الطبيعى ينصب حول مكان مولده أو بعبارة أدق حول مرتع طفولته وحول الشارع الذى كان يعيش فيه

والبلد الذى يقطنه وما يحيط به من الأماكن بل ربما حول المناطق الريفية المجاورة التى كان يقضى فيها عطلته . ويمكن أن ينتقل هذا الحنين الى الأماكن التى مر المرء فيها بتجارب شخصية الى الاقليم نفسه .

وعلى كل حال فان هذا يتطلب شيئا من الدعاية فلو ترك الفرد الذى يسكن الهول الأمريكية الرائعة ليختار ما يشاء من وسائل الحياة فانه سيشعر بقدر أكبر من الراحة فى الريف الواقع غربى كندا مما سيشعر به فى نيوانجلند كما أن متسلق الجبال فى ايطاليا سيشعر أن جبال اليونان أكثر جمالا من الجبال الايطالية التى تبعد عن البحر ٣٠ ميلا .

هذا كما تمكن السيارة الكثيرين من الأمريكيين وغيرهم من الذين يملكون أية وسيلة من وسائل الانتقال الآلية ــ تمكنهم من التعرف على الكثير من المناطق فى بلادهم ولكن حتى فترة قريبة كان حب الشخص لأرض بلاده يقوم على أساس القصص والأساطير والكتب والصور أكثر مما كان حب الناس للوديان ومجارى الأنهار يربط بعضهم ببعض فان هذا الحب وليد الأدب الوطنى والدعاية الوطنية دون أن يكون نتيجة من نتائج قرب الشخص من الناحية الجغرافية من هذه الأماكن .

ويقال أيضا ان مسألة الأرض هى التى تقرر مدى وحدة الشعب فى الدولة وأن الشعب الذى تضمه دولة صغيرة أكثر

اتحادا وتماسكا من الشعب الذى يعيش مبعثرا فى مساحة كبيرة من الأرض ولكن هذه الفكرة أيضا موضع شك •

واذا سلمنا بأن الاتصال الشخصى فى الأراضى نفسها يجعلهم مشتركين فى شيء ما فان مساحة المنطقة التى يمكن أن يشعر المرء نحوها بمثل هذا الشعور ستعتمد الى حد كبير على وسائل المواصلات وعلى وجود حواجز اجتماعية واقتصاديه أو عدم وجودها •

فالولايات المتحدة تغطى مساحة كبيرة من الأرض ولكن يبدو من المعقول أن تقول ان سكانها لديهم معرفة بمختلف المناطق أكثر مما لدى سكان أى بلد آخر أصغر منها مساحة مثل يوغوسلافيا حيث تقل وسائل المواصلات والانتقال وحيث يزداد الشعور نحو الأقاليم •

ويبدو من الواضح أنه على الرغم من أن وجود الأراضى القومية شرط لابد منه لا يمكن أن تقوم بدونه دولة حديثة فان الأراضى فى حد ذاتها لا تعتبر عاملا هاما لوحدة الدولة • بل ما يحدث هو خلاف ذلك • والارتباط القوى بالأرض المحلية يعمل على انقسام الدولة • وذلك لأن الدولة وحدة سياسية يسهل السفر والانتقال داخل حدودها على حين يصعب عبور هذه القومية ونتيجة للأدب الوطنى والدعاية يخالج الناس شعور قوى نحو الأراضى القومية التى لم يروها أبدا •

وتعتبر الدولة فى العصر الحديث الى حدما وحدة اقتصادية، فقد انتهى العهد الذى كانت تعتمد فيه جميع الدول الصناعية على نفسها بل ان هذا الاتجاه فى سبيل الزوال أيضا فى الدول المتخلفة وحتى الزراعيين الذين يمكنهم أن يعيشوا على نتاجهم يفضلون التخصص فى المحصولات النقدية ويرسلون انتاجهم الى المدن للحصول على نقود تساعدهم على شراء كثير من السلع المصنوعة والمواد الغذائية غير المحلية التى يحتاجون اليها .

وتربط الدولة شبكة هائلة من العمليات التجـــارية بين المواطنين ، وكل مواطن يعتمد على عدد كبير من اخوانه المواطنين المنتشرين بين أنحاء البلاد . والواقع أن بعض حاجات كل مواطن تجعله يعتمد على المواطنين فى دول أخرى .

وتؤكد كتب العــلاقات الدوليــة أهمية زيادة التــكامل الاقتصادى بين الدول . وهذه ظاهرة هامة لها مغزى كبير فى المستقبل ولكن يجب ألا يتسبب وجودها فى اضفاء الغموض على التكافل الاقتصادى الأقوى القائم داخل كل دولة من الدول . فان حرمت الولايات المتحدة نفسها فجأة التجــارة الخارجية فسوف تتعطل المصانع الرئيسية بها لنقص المواد الخـــام لحين الوصول الى مواد خام أخرى بديلة أقل جودة كما ســـتنقطع الأرباح عن الكثير من الصناعات وسيطرة الكثير من العمال

وسيضطر المستهلكون الى الاستغناء عن منتجات كثيرة كانوا لا يفكرون فى الاستغناء عنها ٠ بل قد نعانى كسادا فى الحـــركة التجارية ٠

ولا شك أن هذا سيتطلب اعادة التنظيم الاقتصادى من جديد ولكن لو توقفت التجارة فى نيويورك مع المناطق الريفية المحيطة بها فجأة فلا شك فى أن الناس سيهجرون المدينة فى خلال اسبوع واحد ، واذا حرم جزء من الريف التجارة الخارجية فانه سيتجه فورا الى الاقتصاد الريفى ٠

وقد يستحيل على المواطن الأمريكى أن يتصور ما تكون عليه حياتنا لو لم يكن الاقتصاد الأمريكى منتشرا فى أنحاء البلاد٠

ويعتبر التقدم الفنى الحديث من القوى الدافعة وراء هذه الوحدة الاقتصادية القومية ٠ ونتيجة لذلك أخذ يزداد تحديد احتياجات الدولة ٠ فالانتاج الاقتصادى للسلع باستخدام الآلات الحديثة يتطلب اتباع سياسة الانتاج الكبير وهذا الانتاج يتطلب سوقا قد تمتد بامتداد رقعة الدولة بأكملها ٠ ولكن ضمان وجود سوق من الضخامة بحيث يكفى استهلاك كميات كبيرة من السلع المصنوعة يتطلب زيادة الطلب على المنتجات باستمرار ٠ ويشترك جميع المنتجين الأمريكيين الكبار فى الاعلان عن سلعهم لذلك يتعرض الشعب دائما لمطالبة المنتجين له بالشراء ٠

وهكذا تختفى الاختلافات المحليـــة فى الأذواق والحاجات

ويصبح الاستهلاك بين الأفراد أكثر تشابها نتيجة لنفوذ الدعاية والاعلانات ومن ثم تزداد الوحدة فى الدولة .

ويحدث التطور نفسه أيضا فى الاقتصاديات الموجهة مثل الاقتصاد الروسى . وليس ثمة ما يدعو الى الدعاية فى الاتحاد السوفيتى لأن الشعب يحتاج دائما الى أكثر مما تنتجه الصناعات غير أن ترتيب درجات المنتجات أكثر أهمية هناك مما هـو فى أمريكا . فمنذ خمسين عاما لو وضع شخص فى شارع غير غريب عنه وفى منطقة لا يعرفها فى الولايات المتحدة فانه كان سيتمكن من أن يتعرف بالتخمين الدقيق على المكان الذى هو موجود به وذلك لأن ملابس الناس كانت مختلفة والبيوت بعضها يختلف عن بعضها الآخر وكان لكل مكان طابع خاص يميزه .

أما اليوم فقد يستعصى على المواطن الأمريكى الذى يجد نفسه فى نهاية طريق برى جديد أو فى منتصف ضاحيـة جديدة ـ قد يستعصى عليه أن يعرف بالتخمين أهو فى أوريجون أم فى كنساس أم فى مين؟ ولو وجدت سيدة نفسها فجأة فى مطبخ غريب عليها لاستعصى عليها أن تعرف أهذا المطبـخ فى مزرعة ام فى منتصف احدى المدن الكبرى ؟ والانتـاج الـكبير والدعاية الواسعة النطاق تؤثر كثيرا على ترتيب درجات السلع . ويوجد من تأثير هذين العاملين نشر ثقافة تجارية جديدة بين أطراف البلاد .

ولو تحررت القوى الدافعة للتقدم الفنى الحديث والانتاج

الكبير من التدخل السياسى فانها ستخلق سريعا اقتصادا عالميا وان كان هذا حدث فعلا على نطاق ضيق غير أن الحكومات القومية لا تستطيع أن تتجاهل الحياة الاقتصادية لرعاياها بل ان معظم الحكومات التى تتبع مبدأ الحرية التجارية تتخذ خطوات معينة لمنع سير التجارة الدولية فى حرية . وغالبا ما تحاول الحكومة الاحتفاظ بالأسواق الوطنية للمنتجين فى بلادها فتضع العراقيل فى طريق البضائع الخارجية التى تعبر الحدود .

وقد انتهجت الولايات المتحدة هذه السياسة عن طريق التعريفة الجمركية التى أضرت بالمستهلكين الامريكيين اذ جعلتهم يدفعون أسعارا مرتفعة مقابل السلع المستوردة من الخارج غير أن هذه التعريفة أفادت المنتجين الأمريكيين بحمايتهم من المنافسة الخارجية . ويحقق الاقتصاد الروسى الذى تتحكم فيه الحكومة عن طريق قيام الحكومة بالتجارة الخارجية فهى تقوم بشراء وبيع السلع التى تتمشى مع الخطة القومية بمايحقق فائدة كبيرة للبلاد. وماأكثر الأساليب السياسية للتمكن من دعم التجارة الدولية بما هو فى صالح البلاد وكثيرا ما تكون هذه الأساليب معقدة الى حد كبير .

ويكفى القول بأنه ما من حكومة قوية حديثة تسمح بدخول البضائع وخروجها دون أى قيد كما هى الحال عند نقلها داخل الأراضى .

ويعمل التخطيط الحكومى على زيادة الوحدة الاقتصادية داخل البلاد ، اذ تعتبر الدولة وحدة التخطيط فى الاقتصـــاد الموجه كما يسير الانتاج والتوزيع طبقا لخطط موضوعة تطبق فى جميع أنحاء البلاد • ولكن فى الاقتصاد الذى يجمع بين بعض خصائص الاقتصاد الموجه وبعض خصائص الاقتصاد الحر مثل الاقتصاد الأمريكى تسير المنظمات الاقتصادية الخاصة طبقـا لخطط تتمشى هى وسياسة الحكومة حتى الشركات التجـارية المحلية تخضع لسياسة الحكومة الضرائبية ولوائحها الخاصـــة بالائتمان والبنوك وغيرها من السياسات الضرائبية التى توضع لصالح الدولة بأسرها •

وختاما يمكننا أن نقول ان التقدم الفنى الحديث والانتاج الكبير قد وسعا نطاق العمليات الاقتصادية وساعدا على انتاج وحدات اقتصادية أكبر ، وقد شجعت الحكومات هذا الاتجـاه داخل بلادها وان كانت لا تشجع على اقامة روابط اقتصــادية حرة تمتد الى خارج البلاد • ولا جدال فى أن زيادة التكافل الاقتصادى بين الدول يعتبر أكبر قوة هدامة يتعرض لها نظام الدولة ولكن طالما ظل هذا النظام قويا ظلت الدول ذات وحدات اقتصادية مستقلة •

ويشترك أعضاء الجماعة القومية عادة فى اللغة اذ أنها هى التى تفصلهم عن شعب أية دولة أخرى • ولعل ذلك أبسط وسيلة

وأكثر الوسائل شيوعاً للتعرف على جنسية أى شخص من الأشخاص هى الوقوف على اللغة التى يتكلمها الشخص • والحقيقة أن لغة أى شعب من الشعوب تحمل الاسم الذى يحمله الشعب نفسه ولذلك يتكلم الفرنسيون اللغة الفرنسية ويتكلم اليابانيون اللغة اليابانية وهكذا دواليك •

ان وجود لغة قومية له أثران : فاللغة القومية تجعل الاتصال بين أفراد الدولة سريعا وبسيطا وهذا أمر لابد منه اذا كانوا يريدون اقامة علاقات واسعة النطاق بين بعضهم وبعض وأن ينموا الشعور بوجود شخصية مشتركة بينهم • وفى الوقت نفسه أدى ذلك الى زيادة الاختلافات بين أى شعب ينتمى الى جنسية واحدة وأى شعب آخر لأنها تجعل الاتصال بين الشعوب المختلفة صعبا وعسيرا • ويدرك السياح الأمريكيون الذين زاروا البلدان التى لا تتحدث الانجليزية مدى صحة هذا الكلام • وكم يشعر السائح بالراحة عند عودته الى الفندق حيث يجد موظفين يتفاهمون معه بالانجليزية بعد أن يكون قد قضى يوما كاملا فى المشاهدة حيث كان من العسير عليه أن يطلب وجبة خفيفة أو اعداد حمام له •

انه لمن اليسير جدا أن يختلف المرء مع شعب لا يفهم ما يقول ومن الصعب أن يقيم صداقة مع شخص لا يمكنه الكلام معه • ومن الممكن التغلب على بعض الصعوبات التى تنشأ عن وجود

لغات منفصلة بتعلم لغة ثانية أو ثالثة وهذه وسيلة شائعة بين الأوربيين المثقفين غير أن الانسان لا يستريح أبدا الى اللغة الثانية كما هى الحال بالنسبة للغته القومية .

وأحيانا لا يكون اختلاف اللغة بين البلدان باختلاف الحدود القومية ، ففى بعض الأحيان يتكلم لغة واحدة أكثر من دولة وهذه هى الحال بالنسبة للغة الانجليزية التى تعتبر اللغة المشتركة فى انجلترا وأمريكا واستراليا ونيوزيلندا ومعظم كندا وجزء من جنوبى افريقية أواللغةالفرنسية فىفرنسا وبلجيكا أو اللغة الألمانية التى تعتبر لغة مشتركة فى ألمانيا والنمسا أو اللغة الأسبانية فى أسبانيا ومعظم أمريكا اللاتينية .

وفى مثل هذه الحالات قد تعتبر اللغة قوة موحدة داخل الدولة ولكنها لا تكون عقبة بين شعوب الدول المختلفة التى تتكلمها . ولا تقتصر اللغة على مجرد الكلمات والقواعد اللغوية فهى تتميز بلهجة معينة ونغمة معينة ، فاللغة الانجليزية فى أمريكا تختلف عن اللغة الانجليزية فى بريطانيا كما أن اللغة الفرنسية فى كندا يمكن أن يميزها المرء فى فرنسا .

وفى بعض الأحيان قد تسود الجماعة القومية الواحدة لغتان أو أكثر . وخير مثال لذلك سويسرا حيث توجد ثلاث لغات رسمية ، وفى كندا لغتان مختلفتان وهذه هى الحال أيضا بين البيض فى جنوبى أفريقية . وهناك عشرات من اللغات فى

الاتحاد السوفييتى والهند • أما الصينيون فانهم يتكلمون لهجات مختلفة ربما لا يمكنهم التفاهم بها على الرغم من وجود لغة كتابية واحدة بينهم •

ومن العسير علينا أن نبين بدقة مدى ما تفقده الجماعة القومية التى تتكلم لغات مختلفة فى الترابط والوحدة لعدم وجود لغة مشتركة بين جميع أعضائها • وعلى أى حال فشقة الخلاف خطيرة حقا بين سكان جنوبى أفريقية الذين يتكلمون الانجليزية وأولئك الذين يتكلمون الأفريقية

وواضح ايضا الانقسام القائم فى كندا بين من يتكلمون الانجليزية والفرنسية غير أن الاختلافات اللغوية فى هاتين الحالتين ربما لا تكون سوى عرض للخلافات دون ان تكون أسبابا لها • فالسكان فى سويسرا على جانب كبير من الترابط والوحدة • ولكن لا شك فى أن عدم وجود لغة مشتركة يعتبر عقبة كئودا فى طريق بعض الدول الحديثة مثل الهند او الولايات الموجودة فى افريقية والتى ستصبح دولا فى المستقبل

واننا لنتكهن ببذل جهود ضخمة هناك لنشر احدى اللغات القومية بين جميع المواطنين حتى يمكن زيادة الوحدة القومية •

ولقد قطعت الدول فى هذا السبيل شوطا بعيدا بحيث انها أخذت تحيى لغات ميتة حتى توجد لغة مشتركة يمكن تمييزها عن لغات الدول الاخرى • ومثال ذلك اليهود فى اسرائيل الذين

يبذلون جهودا ضخمة لتعلم اللغة العبرية • كما انه من الضرورى لكل ايرلندى يكون قد تعلم اللغة الانجليزية منذ ولادته ان يتعلم اللغة الحالية اذا كان يريد أن يتكلم لغته القومية • وقد يخلق المسئولون فى بعض الاحيان لغات قومية ثم يعملون على نشرها والنهوض بها بتأييد حكومى وبمجرد ان توجد هذه اللغات فانها تساعد على بعث الشعور بالوحدة بين المتكلمين بها •

الثقافة القومية

تعتبر اللغة عاملا من عوامل الثقافة التى غالبا ما تكون مشتركة بين أعضاء الدولة وتتضمن اللغة كل ما يتعلمه الناس عن غيرهم • فالثقافة هى التى تحدد اللغة التى يتكلمها الفرد والملابس التى يرتديها والاغذية التى يرتاح لها وتلك التى يتقزز منها وهى التى تحدد سلوكه وتصرفه فى آلاف الظروف المختلفة التى تتألف منها حياته اليومية •

ولا جدال فى ان الناس الذين يتقاسمون ثقافة واحدة يشعرون انهم اكثر ترابطا واتحادا من اولئك الذين توجد بينهم ثقافات مختلفة • وهناك طبعا اختلافات واضحة فى الثقافة بين أفراد الطبقات الاجتماعية وبين افراد مختلف المناطق التى تضمها أراضى الدولة ، ولكنهم يميلون الى التشابه والتقارب باعتبارهم اعضاء فى دولة واحدة نتيجة لاختلاطهم بعضهم ببعض ولتعرضهم

للتأثيرات القومية نفسها والمدارس والاعلانات والأفلام السينمائية حتى ان لم يتشابهوا تماما فانهم يتصلون باخوانهم المواطنين اتصالا يجعلهم يعرفون ما يمكن أن يتوقعوه منهم .

ولعله مما يبعث على الارتياح أن يتعامل الانسان وأناسا يسلكون السلوك الذى يتوقعه منهم وينهجون الاساليب نفسها وينظرون الى الحياة النظرة نفسها ، ويؤمنون بالآراء نفسها ويضحكون للنكات نفسها لا شك أن الانسان حينئذ يشعر بأنه وثيق الصلة بهم وانه منهم .

ان وجود ثقافة مشتركة من شأنه ان يوجد جماعة منفصلة عن غيرها من الجماعات التى لا تشاركها الثقافة نفسها . ولا شك ان الفرد الذى اعتاد ان يشاهد من حوله من الناس يسلكون السلوك الذى يسلكه هو سيتعجب ويندهش حينما يلتقى لاول مرة بشخص ينتمى الى ثقافة مختلفة عن ثقافته .

فلاشك فى أن الاوربيين قد صدموا حينما رأوا الافريقيين وهم عراة كما ان الافريقيين انفسهم فى الوقت نفسه كانوا يرون أن منظر الاوروبيين يبعث على الضحك وهم يضعون اذرعتهم وأرجلهم فى حقائب صغيرة فى جو افريقية الحار .

ولا شك أن الامريكيين يتضايقون من الاجراءات الصحية فى الهند على حين يشمئز الهنود المتعلمون من النظرالى الامريكيين وهم يتمخطون فى قطعة من القماش ثم يضعون هذه القطعة فى

جيوبهم وينزعج الأمريكيون من النظام الذى تحافظ عليه الأسرة الالمانية المحافظة على حين يرى الالمان ومعظم الاوروبيين ان الاطفال الامريكيين سيئو الخلق ويسلكون سلوكا مشينا .

وتنطوى الاختلافات فى الثقافة القومية فى بعض الاحيان على مواقف اساسية ، اذ يتعلم الامريكيون فى أيام طفولتهم الاولى كيف ينافس بعضهم بعضا وتدل الاختبارات على انهم يجيدون عملهم كل الاجادة فى حال وجود منافسة بينهم ، وهم يتعلمون فى الوقت نفسه كيف يقبلون الهزيمة بصدر رحب .

أما اليابانيون فانهم يتعلمون كيف يجب عليهم ان يتجنبوا المنافسة ، لذلك فانهم يجيدون عملهم عندما يعملون وحدهم وعندما يقيسون عملهم فى أى وقت من الاوقات بعملهم فى المرات السابقة على حين تضيع جهودهم عندما يوجدون فى مجال المنافسة . وقد يحز فى نفس اليابانى ويغضبه فترة طويلة لو انه خسر شيئا امام احد منافسيه .

ويمكن المرء فى هذه الحال أن يتصور مدى الصعوبات التى تنشأ عن موقف يجتمع فيه اليابانى والامريكى فى مجال المنافسة وربما لا يفكر احد من لاعبى الكرة الامريكيين كثيرا فى أمر اللاعبين اليابانيين الذين قد يبكون كثيرا لهزيمتهم وقد يتمادون فى ذلك فيكرهون الامريكيين الذين الحقوا بهم العار بالانتصار عليهم .

ولنضرب مثلا آخر عن اعتراف المرء بانه ارتكب خطأ سابقا • فبينما يتعلم الامريكى انه من الدليل على النضوج ان يعترف المرء احيانا بانه أخطأ يتعلم اليابانى ـ طبقا للثقافة اليابانية ـ انه من العار عليه ان يعترف بالخطأ • وهذه مواقف جوهرية بالنسبة لكل منهما فالشخص الذى يتمسك بأى موقف من المواقف سيجد أنه من العسير عليه ان يتعامل هو وشخص يتمسك بالموقف الآخر •

وقد تكون الاختلافات القائمة بين الثقافات القومية أتفه من ذلك ، والواقع انه كثيرا ما تعتبر هذه الاختلافات التافهة أكثر الاختلافات قربا من الروح القومية ومن هذه الاختلافات البسيطة حب الفرد للمكرونة الاسباجتى او المكرونة الاسبانية أو حبه لشربة الضفادع أو الطيور •

فاذا مررت مثلا بجوار حقل للكريكت وسمعت المتفرجين ينادون بصوت مكتوم «لعبة حسنة» ويصفقون فى هدوء يمكنك ان تفهم سريعا ان النظارة انجليز او اذا شاهدت جمهورا صاخبا من الناس يأكلون قطع السجق الصغيرة ويحتسون بعض المشروبات من زجاجات فى أيديهم على حين يتأرجح رجل أفقيا ومعه مضرب يصوبه نحو كرة لا يكاد يراها المرء فانك ستعرف ان الذين تراهم أمامك هم امريكيون •

ولا شك فى أن من له دراية بالأزياء الحديثة سيتمكن من أول

نظرة من التمييز بين الالمانى والايطالى والانجليزى والامريكى لو وجد نفسه فى حجرة معهم • فطول السترة يدل على جنسية الشخص • ويدل على ذلك ايضا اختيار نوع القماش واللون • ولكن يجب الا يعتمد الشخص على الملبس فقط ليصدر حكمه اذ ان طريقة الكلام عند كل واحد من بين الاربعة ووقفة كل منهم والتعبيرات التى تظهر على وجه كل منهم بحيث يمكنه أن يتعرف بشكل قاطع على جنسية كل واحد من الاربعة •

وقد تبدو هذه الاختلافات تافهة عديمة القيمة ولكن يحتمل جدا أن يجد الغازى الغريب لأمريكا الذى يجبر على لبس السترات الطويلة ويحرمهم الأنواع المألوفة لديهم من المأكولات والمشروبات (كأن يحرم عليهم شرب الخمر أو يجعلهم نباتيين) ويحرم عليهم مشاهدة التلفزيون او الرياضة ــ يجد هذا الاجنبى نفسه مكروها مثله مثل اى غاز آخر يدخل تغييرات كبيرة على النظام السياسى والاقتصادى ولم يمس العادات الامريكية

ان وجود ثقافة مشتركة يعتبر من أقوى القيود التى تربط بين أعضاء الجماعة القومية وكل من يعيش فى ثقافة قومية معينة ثم يحاول بعدئذ الانتقال الى ثقافة اخرى سيدرك مدى صعوبة الشعور بالاندماج فى الثقافة الجديدة • ومهما كانت درجة تفاهمه مع الثقافة الجديدة فلا شك فى انه سيعانى بعض المضايقات وأنه لن يظهر الاستجابات العاطفية التى يظهرها المواطنون

الاصليون • وسيجد هذا الشخص ان بعض الاستجابات تتطلب دائما مجهودا ذهنيا •

الروابط الدينية

يجب ان نوضح أن الثقافة القومية لا تتضمن طرق السلوك فقط بل انها تتضمن أيضا طرق التفكير والعقيدة • ولقد ساعدت العقائد الدينية المشتركة على تقوية الشعور بالوحدة القوميـة خاصة عندما تواجه الدولة اعداء يدينون بعقيدة مختلفة • وقـد وضعتها معظم الحكومات الحديثة فى المرتبة الثانية ولكن يجب عدم تجاهل أهميتها كقوة موحدة •

ومن أهم الأمثلة التى تضرب على أهمية الدين كقوة موحدة هو الدور الذى لعبه الدين فى انشاء دولة اسرائيل التى اجتمع فيها اليهود ليؤلفوا دولة بعد أن ظلوا مشتتين من الناحية السياسية ألفى عام تقريبا • وطيلة هذه الفترة الطويلة كان لا يزال الشعور بالشخصية القومية حيا بفضل النظم والمعتقدات الدينية • ولاشك فى أن هذه حالة غريبة غير ان الدين لعب دورا وطنيا كبيرا فى البلاد الاخرى ايضا فهو الذى بعث فى الأسبانيين الشعوربالوحدة أمام المغاربة وهو الذى زاد الى حد ما حـدة الخلاف بـين الأيرلنديين والانجليز وهو الذى أتاح للعرب فى شمالى أفريقية شخصية قومية متميزة عن المستعمرين الفرنسيين الذين يشتركون معهم فى الجنسية •

ولكن الأديان لا تحترم الحدود القومية فكثيرا ما تكون الجماعة الدينية أكبر من الدولة وهى فى بعض الاحيان تتدخل بين الجماعات القومية وربما كان الدين عاملا من العوامل التى حفزت الدول التى يسودها نظام واحد من العقائد الدينية كما حدث عند ما أيدت دول أمريكا الجنوبية بالاجماع ايطاليا واسبانيا الكاثوليكية فى محاولتهما السماح لهما بعضوية الامم المتحدة أو عندما اتحدت بعض الدول الاسلامية لتؤلف الجامعة العربية ٠

ان الأديان التى تخترق الحدود القومية قد تكون مصدرا خطيرا من مصادر الانقسام ٠ فالخلافات الدينية هى التى قسمت الهند البريطانية قسمين : الهند الحديثة والباكستان وما ترتب على ذلك من اندماج الملايين من الأفراد فى دولة لا يدينون بدينها ٠

وبوسع معظم الدول الحديثة أن تتضمن أكثر من جماعة دينية واحدة ٠ فالاتحاد السوفييتى الذى تتغلب عليه المسيحية الارثوذكسية والالحاد يضم اقليات كبيرة العدد من المسلمين واليهود ٠ بل فى الولايات المتحدة نجد مواطنيها يمثلون ثلاثة أديان هامة فى العالم ، وتضم كل من الصين والهند عددا كبيرا من الجماعات الدينية المختلفة ٠ والمألوف فى مثل هذه البلدان التسامح حيث ان الاتجاه الى أية وسيلة أخرى قد يزيد الانقسام داخل الدولة جدة ٠

وعلى العموم يمكننا ان نقول ان وجود معتقدات دينية مشتركة هو عامل هام من عوامل الوحدة بين الجماعة وان المشاعر الدينية تستغل لتقوية الشعور الوطنى فى الدول التى يسودها دين واحد غير أن هذه المعتقدات لا تكون ذات أهمية عندما تكون الخلافات الدينية تشيع الانقسام فى الدولة

الايديولوجية السياسة

ان تلك المجموعة من المعتقدات الوضعية التى تعرف فى بعض الأحيان بالايديولوجية السياسية أفضل من الدين فى تحقيق الاغراض الوطنية للحكومة . فالشيوعية والنازية والفاشية مثلا لم تكن سوى اشكال للحكومة غير أنها كانت تنطوى على مجموعات من المعتقدات والاساطير والقواعد والطقوس المختلفة وقواعد السلوك . بل ان الروح الأمريكية نفسها تنطوى على بعض العناصر الثابتة مثل الاستعراضات والاعلام وأنواع القسم وتلاوة التاريخ القديم وذكر الأبطال السابقين فى يوم ٤ من يوليو وخطب الانتخابات . فشعور الأمريكى بأمريكيته يختلف عن شعوره بانه محاسب ، لان هذا الشعور ينطوى على مشاعر زاخرة بالحب والفخر والاخلاص .

ويتعلم الأطفال فى المدارس فى كل دولة من الدول كثيرا من الحقائق التفصيلية عن شكل حكومتهم وعن الفلسفة السياسية

التى تسير بمقتضاها لكى يفهموا حقوقهم وواجباتهم كمواطنين من ناحية ولاشعال جذوة الوطنية فى نفوسهم من ناحية أخرى• وبنظرة الى محتويات مقررات علم السياسة ولاسيما تلك المقررات التي يدرسها تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية يتضح لنا الغرض منهــا •

ولعلنا نلحظ الاهتمام بالاحداث الجليلة والابطال السياسيين بمقارنتها بمعالجة الاحداث والشخصيات التى هى أقل أهميــة فى عصرنا الحاضر • ولعلنا نلحظ الوقت الذى يقضى فى قراءة الموضوعات التى تنطوى على مبادىء رئيسية وقطع من الدستور وما شابهها من الموضوعات بمقارنته بالوقت الذى يقضى فى دراسة السلوك السياسى • فالمواطن الصالح يجب أن يعلم كيف يحدد نسبة الضرائب وكيف يعمل الجهاز السياسى فى مدينــة كبيرة وكيف يتم اختيار زعماء الاحزاب وكيف تعمل الجماعات المختلفة ولكن هذه الاشياء لا تهتم بها مدارسنا كثيرا لانها لا تنقل للنشء معلومات عن السياسة العملية بل انها تنقل اليه ألفاظا طنانة واناشيد وطنية تبعث فى نفوسهم شعورا قويا بالشخصية القومية •

التــاريخ المشــترك

ان التاريخ الماضى لاية دولة هو بمثابة تقوية الشعور بالوحدة القوميــة وذلك لأن المواطنين فى أية دولة قد مروا معــا بفترة من فترات التاريخ القومى وهى تلك الفترة التى عاشوا خلالها

والاشتراك فى التجارب يخلق دائما رباطا قويا يربط بين الأفراد غير أن الأحداث التاريخية تبعث شــعورا بالوحدة القومية لا يقتصر على الاشخاص الذين يشتركون فى هذه الأحداث وقت حدوثها فحسب بل يمتد أثر هذه الأحداث فتــدرس وتبعـث فى نفوس القراء الشعور الوطنى القوى الذى بعثته وقت حدوثها .

أما فيما يتعلق بآثار التجارب المشتركة على الشخصية القومية فقد يقول المرء أنه لا أهمية لنوع التجارب التى مرت بها الدولة فالمهم أن يتقاسم هذه التجارب أكبر عدد من الأفراد والا يفكر أعضاء الدولة فى أنهم أقل من أن يمروا بمثل هذه التجارب فلقد هزمت ألمانيا مثلا مرتين فى الحربين العالميتين الاخيرتين وقاسـت الكثير من الهزيمة غير أن هذه النكبات لم تترك أثرا يذكر على تضامن أبناء الشعب على الرغم من أنه يبدو أنهم قد تخلوا عــن الطابع العسكرى الذى كان يميز ألمانيا على الأقل فى الوقـت الحاضر . فالتجارب القاسية المشتركة تخلق رباطا لا يقل قـوة عن الرباط الذى يخلقه النصر المشترك أو بالاحرى أقوى منـه والدليل على ذلك تاريخ اليهود .

ويبدو أن تجربة الحرب من أهم التجارب التى تمر بهـا الدولة والتى تقوى الشعور بالوحدة القومية . ولاوقات نشوب المعارك وتفاصيلها وأسماء القادة والزعماء فى زمن الحرب أهمية

كبيرة فى تاريخ كل دولة • ويجب ألا يثير هذا أية دهشـــة لان الحرب تجربة من التجارب القومية القليلة التى تدفع الـــدولة الى العمل والتفكير كوحدة واحدة والتى تعتبر فيها مصلحـــة المجموع اكثر أهمية من مصلحة الأفراد • فعندما تحارب الجماعات وتموت جنبا الى جنب يزداد شعورها بالوحدة •

ومن الأسباب التى جعلت أهل ولاية تكساس يشعرون بالفخر نحو ولايتهم والتى جعلتهم يحتفظون بهذا الشعور المحلى القوى هو انهم اشتركوا معا فى القتال ضد المكسيك أكثر من ١٠٠ عام وظلوا يتمتعون بالاستقلال منذ ذلك الوقت ولهم تاريخ مستقل عن بقية الولايات المتحدة فى هذا الشأن وهم يفخرون بذلك •

ونضرب مثالا على ذلك أيضا بسكان جنوبى أمريكا الذيـــن حاربوا وخسروا فى الحرب الاهلية • فهم يميلون اكثر مـــن الشماليين الى اعتبار الحرب التى نشبت بين الولايات على انهـــا فترة مجيدة • وينظر الجنوبيون اليوم الى زعمائهم الذين دفعوا بهم الى الهزيمة على انهم ابطال يفخرون بهم •

ان مؤسسى الدولة رموز هامة للوحدة القومية وتحاك حولهم الأساطير على حين تأفل حياتهم وتضيع معالمها ولا يعرفون الا على أنهم شخصيات بطولية خلقتها العزة القومية ـ هذا على الرغم من اهتمام الفقهاء بهذا الجانب من الحياة •

ان اتحاد شعب دولة جديدة فى الحرب أمر لا يمكن مقاومته ،

وعندما يحين الوقت الذى يتطلب اثارة المشاعر الوطنية فى الاجيال التالية تختص الدول التى تنبعث نتيجة لصراع بمزايا هامة على غيرها من الدول التى تتألف بطريقة سلمية • ويعرف كل أمريكى ان حرب الثورة هى حرب مجيدة ذات أهمية عظيمة غير أنها بالنسبة لبريطانيا مجرد مناوشات بسيطة فى تاريخها الحربى الطويل •

ان اعتبار الحروب قوة موحدة قد توحى بفكرة خطيرة وهى أنه يجب على الدولة أن تحارب لكى تظل متحدة • ولكن هذه الفكرة ليست ضرورية لحسن الحظ وذلك لان الحروب القديمة يكون لها تأثير الحروب الحديثة نفسه • بل ربما كان لها تأثير أقوى لانها كلها عظمة ومجد دون تضحية • فمن الممكن انيتقاسم التجربة الماضية أشخاص لم يمروا بها لو أنهم عرفوها واستطاعوا أن ينفعلوا مع الممثلين •

وهذا سبب من أهم الأسباب التى تدعو الى تدريس التاريخ القومى فى مدارس الدولة فليس الاهتمام بالحقيقة وبالاصول التى نشأ عنها الحاضر هو الذى يدفع الدول الى تعليم تاريخها للنشء لان تدريس مثل هذه الأشياء يقوم على أساس الافتراض الصحيح بان شعور التلاميذ بالوحدة مع دولتهم سيقوى ويساعد على الوصول الى صورة مجيدة لنشأة الدولة وتطورها •

وهذا هو السبب الذى يدفع الى تصوير الأبطال والأحداث

التى أضفت على الدولة بهاء وروعة للعزة الذى قد يشعر بها المواطنون بارتباطهم بمثل هؤلاء الابطال وهذه الاحداث •

ولا شك فى أن الزعماء السياسيين والعسكريين هم الذين يكونون فى القمة وان كان التاريخ حافل ايضا بالشخصيات العظيمة فى أى مجال من المجالات • فالفنانون والكتاب والمفكرون والمخترعون واصحاب المغامرات لهم مكانتهم كأبطال وطنيين •

وتنفرد الدول ذات التاريخ الطويل ببعض المزايا غير أن الدول الحديثة التكوين يمكنها ان تعوض بعض هذا النقص بانتسابها الى عظماء الرجال من بين اجدادها فى العصور السابقة على تأليف الوحدة السياسية •

وهكذا نجد اليونانيين يفخرون بانتسابهم الى هوميروافلاطون والايطاليين يفخرون بقيصر وفرجيل ودانتى وميخائيل انجلو وجميع الفنانين والمفكرين الذين ظهروا فى التاريخ الايطالى القديم ، على حين ادمج الامريكيون المهاجرين (وكلهم انجليز) فى تاريخهم القومى بل ان كولومبوس نفسه يدمج فى التاريخ الامريكى لانه اكتشف القارة الامريكية على الرغم من أنه فى الوقت نفسه قد اسبغ المجد على ايطاليا التى ولد بها واسبانيا التى ساعدته على القيام باكتشافه •

هكذا نجد فى التاريخ المشترك رابطا يربط بين أعضاء الدولة

الواحدة أولا لانهم مروا فعلا بجزء بسيط من هذا التاريخ وثانيا لانهم مروا بسلسلة من الاحداث العظيمة التى وقعت قبل مولدهم بالاستعانة بما تنقله اليهم كتب التاريخ والقصص .

الخصائص المشتركة - موجز

أولا - رأينا أن الأفراد فى أية جماعة قومية يشتركون فى خصائص كثيرة . وعلى الرغم من أن هذه الخصائص تختلف بين كل دولة وغيرها من الدول فمن الممكن تعميمها فمعظم الدول تسودها لغة قومية واحدة وبعضها يغلب عليها دين واحد . وتشترك جميعها فى التأثر بثقافة مشتركة وايديولوجية سياسية مشتركة وتاريخ مشترك وقدر معين من الوحدة الاقتصادية وتقوم الحكومات من جانبها بتقوية الاتجاه نحو ايجاد فوارق قومية داخل هذا النطاق ، غير أن الرباط الهام الذى يجمع بين أعضاء الدولة هو رباط سياسى لأن الدولة من الناحية الجوهرية وحدة سياسية وليس هناك استثناء لذلك .

ثانيا - تعتبر الجماعة القومية جماعة سيكولوجية أى انها جماعة من الناس يشعرون بأنهم يؤلفون وحدة ويشعرون بوجود خصائص مشتركة هامة كثيرة بينهم سواء أكان ذلك يحدث فعلا أم لا .

انها جماعة من الناس يتخيرون تأكيد الطرق التى يتشابهون فيها

لا الطرق التى يختلفون فيها . وهذا الشعور بالوحدة لا يقل أهمية عن عامل التجانس الذى يفترض أن تقوم عليه الدولة .

ومن المفيد هنا ان نميز بين ثلاثة أفكار نخلط بينها أحيانا اذ يشترك الافراد فى الدولة فى خصائص معينة . وبقدر ما بينهم من التشابه يمكن ان يتحدث الشخص عن التجانس القومى بينهم .

وبالاضافة الى ذلك قد يشعر أعضاء الدولة بانهم متشابهون ويظنون أنهم يؤلفون من بينهم وحدة ويمكننا أن نطلق على هذا الشعور الذى ينتابهم شعور القومية .

واخيرا نتيجة لهذه المشاعر القومية قد يسلك الافراد الذين يؤلفون دولة سلوكا مشتركا باعتبارهم وحدة بحيث يدمجون مصالحهم الفردية فى الصالح المشترك ويقدمون الى العالم الخارجى جبهة وطنية . وقد نطلق على هذا السلوك عبارة : السلوك القومى .

وتشير كل من عبارات : «الوحدة القومية» و « التماسك القومى » و «القومية» و «الوطنية» الى الظاهرتين التاليتين وهما: طريقة شعور شعب أية دولة من الدول وطريقة سلوكها . وتخلق هذه المشاعر والاعمال روابط قوية تربط بين أعضاء الدولة . وسوف نقوم فيما بعد ببحث هاتين الظاهرتين .

القومية

لا شك فى أن القومية قوة عظيمة الاهمية فى العالم الحديث. فقد رأينا الكثير من المظاهر القوية التى تدل على قدرة اعضاء الدولة الواحدة على الشعور والسلوك وكأنها وحدة واحدة . ولا تنحصر القومية فى نطاق الدول الصغيرة المتجانسة التى يتشابه مواطنوها الى حد كبير ويشتركون تقريبا فى مجموعة متماثلة المصالح . بل يبدو أن القومية تميز أيضا الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى حيث يختلف المواطنون بعضهم عن بعض اختلافا كبيرا فى نواح كثيرة . فلقد اتحدت الملايين من الهنود الذين تختلف لغاتهم وثقافتهم ودياناتهم واقتصادهم ولا يشتركون الا فى كرههم للحكام البريطانيين واحترامهم لزعيم عظيم ــ اتحدت هذه الملايين فى القيام ببرنامج يقضى بالمقاومة السلبية التى أجبرت البريطانيين على منحهم الاستقلال السياسى كما أظهرت الدول العربية الجديدة فى الشرق الأوسط التى تعتبر تكتلات تضم أفرادا اقطاعيين وفلاحين أميين وجماهير شعبية كبيرة وحفنة من السياسيين ورجال الأعمال الميالين للغرب ــ أظهرت هذه الدول قدرتها على القيام بعمل قومى ملتهب ومفاجىء .

ما ذلك الشعور الغريب الذى يدفع الناس الى السلوك بمثل هذه الأساليب ؟ ومتى ظهرت القومية ولماذا ظهرت ؟

اننا لا نعلم بدقة متى ظهرت الروح القومية لأول مـرة ، ولكننا نعلم انها ظاهرة حديثة . فالقومية ، بمعناها الحديث ، لم توجد أيام الرومان والاغريق القدماء . ولم تكن قائمة أيضا فى العصور الوسطى ويمكننا أن نلمس الشعور بالقومية فى بداية العصور الحديثة عندما بدأت الدولة التى تضم أمة تصبـح شكلا هاما من أشكال التنظيم السياسى لأول مرة .

والواقع أن هناك شكا فى امكان نجاح الزعماء الذين وحدوا الدول من الناحية السياسية لو لم يستندوا الى هذا الشعور ، أما اندماج الجماعات الحديثة من الشعوب مع الدولة التى ينتمون اليها فهو مسألة حديثة العهد ، فقد ظهر هذا اللون من الشعور أخيرا فى ميدان السياسة العالمية وما زال ينتشر حتى الآن .

وعندما نريد أن نصف القومية فاننا نستند الى أسس أقوى فالقومية من الناحية الجوهرية شعور قوى بالاتحاد الشخصى مع مجموعة من الناس والاماكن وطرق السلوك التى تؤلف الدولة وأساليب الحياة بداخلها ، ويتحقق ارتباط الفرد العاطفى القوى بالدولة عن طريق تحويل جزء من تلك المواقف والمشـاعر التى أوجدها الفرد فى علاقاته بالجماعات الصغيرة التى هو عضـو فيها ، تحويل هذا الجزء الى الجماعة الكبرى غير الشخصيـة المجردة التى يطلق عليها اسم الدولة .

وتتيجة لاتصالات الفرد اليومية تنتابه مشاعر صادقة بالحب والتآلف والاخلاص نحو أسرته وأصدقائه وبدرجة أقل نحـــو زملائه فى العمل وجيرانه •

والواقع أن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس هى التى تمثل الأساس الذى يقوم عليه ارتباطه بالدولة لأنها تتحول الى الجماعة الكبرى بطريقة سيكولوجية بحتة •

ان التقارب بين طبيعة احساسات الفرد نحو أسرته وطبيعة احساساته نحو دولته واضح • فالاراضى الوطنية هى ارض الوطن ، أو وطن الأب ووطن الأم ـ كما تسمى بالانجليزية ـ ويتسع نطاق احساسات الفرد نحو منزله فيشمل الدولة بأكملها فجنود منطقة نبراسكا بأمريكا قد يشعرون بأنهم فى ـ وطنهم ـ عندما تنقلهم السفن من أوربا الى ميناء نيويورك على الرغم من أن نيويورك ربما لا تختلف من حيث غرابتها عليهم عن أى ميناء خارجى آخر مثل ليفربول مثلا •

وكثيرا ما يكون للزعماء السياسيين منزلة الآباء ، ومؤسس الدولة هو ـ أبو بلاده ـ فقد كان القياصرة ـ آباء صغارا ـ كما أن الامبراطور اليابانى أشبه ما يكون بأب مقدس ، بل ان رؤساء الجمهورية الامريكيين أنفسهم كانوا يدينون فى نجاحهم

فى الانتخاب الى حقيقة كونهم صورا للآباء . والاسرة المالكة فى بريطانيا هى من حيث الشعور أسرة كل مواطن مخلص ، ويتتبع البريطانيون أحوال الأسرة المالكة بالقدر نفسه من الاهتمام الذى يتابع به أحوال أسرته .

وتختلف طبيعة الحب الذى يشعر به الفرد نحو بلاده وزعمائه السياسيين بين كل دولة وأخرى ولكن جدير بنا أن نذكر أن شعوره نحو بلاده يتماثل مع شعوره نحو أسرته . فالالتزامات الكبيرة المفروضة على اليابانى نحو أقاربه الكبار فى السن لها تأثير كبير على التزاماته نحو الامبراطور فى بلاده . كما أن التقاليد الصارمة التى تراعيها الاسرة الالمانية قد تركت أثرا كبيرا ظهر واضحا فى طبيعة السياسة الالمانية الصارمة . وتخرج الاسرة الامريكية التى تركز اهتمامها بأطفالها ، تخرج مواطنين يؤمنون بالديموقراطية ولكنهم غالبا ما يحتقرون السلطة ويمكن المرء اذا كان لديه معلومات دقيقة عن العلاقات القائمة بين الآباء والأبناء فى أية ثقافة معينة ، يمكنه أن يتكهن بشىء من الدقة بالكثير من المواقف السياسية التى يتخذها هؤلاء الناس .

ويبدو من الواضح فى المقال السابق أن موقف الفرد وعواطفه قد انتقلت من مجال الاسرة الى مجال السياسة .

ان احتمال حدوث مثل هذا الانتقال فى المشاعر فى الدولة

الصناعية الحديثة أكبر مما كان فى المجتمع السابق على المجتمع الصناعى ، ولا شك أن الروابط التى تربط الافراد بعضهم ببعض عظيمة الاهمية فى مجتمع الفلاحين ، وأكثر من ذلك انه يحتمل أن ينفق الفرد حياته كلها كعضو فى الجماعة نفسها كما تنتمى أسرته وأصدقاؤه وزملاؤه فى العمل وجيرانه جميعا الى الجماعة المحليةنفسها ، ومن اليسير عليه أن يندمج تماما مع هذه الجماعة دون أن يشعر بأية حاجة الى توسيع نطاق ولائه .

ويجب أن نذكر أهمية الدين العظمى فى مثل هذهالمجتمعات وأن نذكر أيضا أن حاجات الافراد الى الاحتفالات الجماعيـــة والطقوس وعلاقاتهم بالجنس البشرى وبالماضى والمستقبل يمكن معالجتها فى الهيئات الدينية .

غير ان هذه الروابط القديمة قد تفككت فى المجتمعالحديث اذ ان الاسر اصبحت اليوم صغيرة ومتنقلة كما انه كثيرا ماتنفصل الآباء عن الأبناء مسافات بعيدة واختلافات فى المصلحة ، وينتقل الجيران كثيرا فلا يلزمون مكانا واحدا فى المجتمع ، ولقد قضت المواصلات على فكرة الاكتفــاء الذاتى بين الجيران التى كانت سائدة من قبل ، بل قضت على الشــعور بالجيرة ، ولا يعرف الفرد عن الناس الذين يلتقى بهم فى مجال العمل الا جزءا بسيطا، وربما لاتلتفت الكاتبة الى عملائها بتاتا بل ان الاصدقاء أنفسهم

يتغيرون من عام الى عام فقد ينتقل أحدهم الى مدينـــة جديدة أو قد يرتفع مستواه الاجتماعى أو قد ينضم الى ناد جديد أو ينمى فى نفسه ميولا جديدة .

والواقع أن عدد الاصدقاء الذين يحتفظ الانسان بصداقتهم منذ الطفولة حتى الشيخوخة صغير جدا .

ولما كان الفرد ينتقل من جماعة الى أخرى ويعمل مع شخص على حين يلعب مع آخر ويعيش مع شخص ثالث فانه يجد نفسه لا ينتمى الى أية جماعة وانه وحيد الى حد كبير ، وقد يلجـــأ الى الدين ليجد فيه علاقة معقولة تربطه ببيئتـــه غير ان الدين اليوم يتحكم فى جزء من حياة الانسان أقل مما كان يتحـــكم فيه فى حياة أجدادنا ، والانسان يتحدى الكثير من واجباته نحو الدين ، ولا عجب فى أن يشعر أحيانا بأنه وحيد وضعيف وقلق وفى انه يتوق من كل قلبه الى جماعة تقرب فى مكانتها من مكانة أسرته أيام طفولته .

ويقال ان الشعور بالاندماج مع الدولة يساعد على تعويض الشعور بالضعف وعدم الطمأنينة الذى يبعثه المجتمع الحـــديث لأنه فى هذا المجال توجد جماعة ينتمى اليها الفرد منذ ولادته حتى وفاته وهى جماعة لم يطرأ عليها أى اختلاف على الرغم من

تغير أعضائها ، جماعة يجب عليها أن تقبله بحكم وجوده ، وقليل من الافراد يأملون فى المجتمع الحديث الذى تسوده المنافسة أن يبلغوا أهدافهم ولكن من الممكن أن يتجنب الفرد الى حد ما الفشل اذا أمكنه أن يجد فى نجاح بلاده تعويضا عاطفيا عن فشله . قد يصب الفرد مشاعره العدائية على الاعداء القوميين وقد يشترك فى مواقف وتصرفات محرمة بموافقة المواطنين لها.

ويقول ورنر ليفى فى هذا المجال :

ان القوانين الاخلاقية التى تنطبق على الفرد باعتباره فردا تكون خفيفة الوطأة عليه باعتباره عضوا فى الجماعة القومية . وقد يلام باتباعه لمبدأ محاسبته لنفسه والصواب أو الخطأ على حين قد يمتدح اذا فعل ذلك باعتباره عضوا فى مجموعة الافراد التى تسمى الدولة ، ويسمح هذا المقياس المزدوج للمواطن وسط الجماعة بالتمتع بسلوك ربما لا يكون مسموحا له باعتباره فردا، واذا فصل المواطن نفسه عن الدولة فانه يستطيع أن يوافق بضمير خالص على أعمال قومية ضد الدولة الاخرى أى ضد جماعات من الناس ، ولكنه ربما استنكر هذه الاعمال لو صدرت من أحد الافراد .

ومن اليسير أن نرى مدى قوة القومية بالنسبة للفرد الذى تتقاذفه العواصف فى العصر الحديث .

الرموز القوميـة

قبل أن يتمكن الفرد من آن ينقل الى الدولة تلك المشاعر التى تنتابه عادة نحو أسرته والجماعات الصغيرة الاخرى لابد من القيام ببعض التبسيطات وتضم الدولة عددا كبيرا من الناس بما لا يلتقى الفرد بمعظمهم وربما لا يرتاح للكثير منهم عندما يلتقى بهم ، وقد يتساءل شخص كيف يمكن أن يشعر الفـرد برباط شخصى قوى يربطه بمجموعة كبيرة من الناس ليس له أى اتصال شخصى بهم أو بالاحرى ليس له بهم أى اتصال بتاتا ؟

والرد على هذا السؤال هو انه يمكنه أن يشعر بهذا الرباط عن طريق الرموز ، فالرمز شىء ثابت وبسيط نسبيا كأن يكون قطعة من القماش الملون ـ مثل العلم ـ أو صورة لشخص لا وجود له مثل العم سام أو جون بول أو قصيدة مثيرة تلقى فى نغمات موسيقية ـ مثل النشيد القومى ـ أو شخصية زعيـم الدولة . ويجد الناس عادة انه من العسير النظر الى المجردات مباشرة . والمثال على ذلك هذا العدد الهائل من الاشياءالرمزية التى تضمها معظم الاديان . ولكن عن طريق استخدام الرموز يجد الناس انه من الممكن أن يشعروا بعواطف شخصية قـوية عن الافكار المجردة البعيدة .

وتعتبر الدولة فكرة مجردة مثل هذه الافكار ، ولا يتـأثر

الوطنى كثيرا فى مقابلاته اليومية مع زملائه المواطنين ، ولـكنه يشعر بتشابه كبير بينه وبينهم عندما يفكر فيهم تفكيرا مجردا وقد يتأثر كثيرا عندما يرقب أو يشترك فى طقوس يمثل فيها الاشخاص والاشياء رموزا للدولة فلا شك فى انه سيتأثر كثيرا جدا عندما يرى جماعة من الشبان الاقوياء فى زى موحـد وهم يسيرون فى خطوات عسكرية منتظمة على نغمات موسـيقى عسكرية . ولكن لو شاهد أحد هذه الجماعة نفسها من الشبان فى ملابس مدنية يوم عطلتهم فان هذا المنظر لن يسترعى نظر أحد ، لأن هؤلاء الشبان لن يكونوا على غير الصورة المألوفة لهم على حين كانوا فى الحالة الأولى يرمزون الى الدولة .

وتعتبر الاعلام رموزا قومية عظيمة الاهمية اذ يمكن حملها الى ميدان القتال وبذلك يمكن أن يكون لها نصيب فى المجـد الذى يحققه النصر ، وهى جميعها متساوية حتى يمكن أن يمثل أى علم بمفرده بقية الاعلام التى ترتبط بالاحداث المجيـدة فى تاريخ الدولة .

وفضلا عن ذلك فالفرد يعلم أن الجنود الذين يشـاهدهم أمامه فى زى عسكرى لم يشتركوا فى أى عمل مجيد أكثر من مجرد تدريبهم العسكرى . وان الجندى القديم لم يشترك الا فى حرب واحدة أو فى حربين فقط ، على حين اشـترك العلم فى

جميع الحروب وجميع الاحداث المجيدة التى مرت بها الدولة .
فالعلم الامريكى وقف أمام البريطانيين فى البر وأمام القراصنة
فى البحر وأمام الالمان فى الحرب العالمية الثانية ، وهزم هتلر
وتوجو وأنقذ كوريا من الشيوعية . وكثيرا ما وضع هذا العلم
على أضرحة الابطال وعظماء الرجال ، فهو رمز الشجاعة
والحرية .

ولاشك أن من يفكر فى العلم ببساطة على انه قطعة من
القماش ربما لا يكون أى معنى للاحتفالات التى تجرى عند
تسليم العلم ولضرورة عدم لمسه للارض وعلى ارتفاعه فوق
أى علم قومى آخر فى الارض الوطنية ، ولكن كل هذه الامور
تكون عظيمة القيمة اذا نظر المرء الى العلم على انه يرمز الى
شرف الدولة وعزتها القومية .

ويعتبر زعماء الدولة أيضا رموزا لها وخاصة اذا لم يكونوا
من الحكام الفعليين المشتركين فى المجادلات والمشكلات اليومية
التى تقابلها السياسة من الناحية العملية . أما من ناحية تمثيل
الزعيم كرمز للدولة بأكملها فان الزعيم التقليدى مثل ملكة
انجلترا وامبراطور اليابان ، يتمتع ببعض المزايا التى لا يتمتع
بها رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية الذى لابد أن يكون
له أعداء أثناء توليه السلطة ، هذا كما أن الزعيم الذى يتولى

السلطة لمدى الحياة أو على الاقل لفترة طويلة يتمتع بمـزاما أكثر من التى يتمتع بها اى مسئول ينتخب بطريقة ديمقراطيـة توحد بين أعضاء الدولة . فقد كان تشرشل يمثل انجلترا تقريبا لمدة قصيرة ويتحتم عليه الاشتراك فى الحملات الانتخابية التى تقوم بها الاحزاب .

ولذلك فاننا تقول اننـا نحترم منصب رئيس الجمهورية لا الرجل الذى يعين رئيسا للجمهورية غير انه من الصعب الفصـل بين كليهما ، والرجل الذى يحتل منصبا معيـنـا يكون رمزا للدولة أفضل من المنصب نفسه الذى يعتبر شيئا مجردا .

ويقوم الزعماء الديمقراطيون النشيطون فى مجال السياسة أحيانا مقام الرموز القومية لا سيما فى الاوقات العصـيبة التى توحد بين أعضاء الدولة ، فقد كان تشرشل يمثل انجلترا تقريبا فى خلال الايام العصيبة التى مرت بها بلاده فى الحرب العالمية الثانية كما رحب بعض الاوربيين بودرو ويلسن ترحيبا عظيما بعـد الحرب العالمية الاولى ، وكان هذا الترحيب تعبيرا عن شعورهم نحو أمريكا لا شعورهم نحو الرجل الذى كان يزور بلادهم .

وتقوم معظم اجراءات البروتوكول الديلوماسى على أساس تخيل الديلوماسيين فى صورة الدول التى يمثلونها .. فقـد يقع أى ضرر شخصى لسفير بلجيكا شخصيا ولكن لا يمكن أن

يوجه الانسان اهانة دون أن تكون هذه الاهانة موجهة لبلجيكا نفسها . أى انه بالاختصار رمز ويجب معاملته كما لو كان هو الشيء الذى يمثله شخصه .

وبالاضافة الى اتخاذ الاشخاص والاشياء رموزا فهنـــاك أيضا رموز لغوية مثل الاسماء والاحداث والعبارات التى تقرأ لا لأنها تضيف شيئا الى الحقائق التى ينطوى عليها الكلام . ولكن لأنها تثير فى النفوس مشاعر الوطنية .

ومحاولتى كتابة قائمة بمثل هذه العبارات قد يظهــرنى فى صورة المتهكم منها وهذا ـ ليس ما أقصده ـ وعلى أى حال فان الخطب السياسية والاحتفالات ذات الطابع الوطنى تزخـر بمثل هذه العبارات . فان أبدى القارىء بعض الملاحظات على خطبة ٤ يوليو أو الخطب الخاصة بالسياسة الخارجية فانه سيجد أن الحقائق الرئيسية كان من الممكن التعبير عنها فى عبـارات قليلة جدا ، غير أن الالفاظ الطنــانة تقضى على الخطبة بحيث أصبح من الممكن نقل هذه الالفاظ من جزء معين من احــدى الخطب الى جزء آخر أو الى خطبة أخرى من موضوع مختلف تماما دون تغيير المعنى .

والواقع أن هذه الالفاظ خصائص وطنية ناتجة عن حقيقــة

استخدامها فى كثير من الخطب الوطنية • وهى فى الواقع رموز لا مجرد ألفاظ لوصف الحقائق •

السلوك القومى

ان طرق الاعراب عن المشاعر القومية كثيرة ، اذ يمكن الاعراب عن هذه المشاعر بالاستعراضات والخطب وفى الاغانى• وقد يكون الاعراب عنها باتباع سياسة التقشف والترحيب بها، أو بالثورات واشعال النيران أو بالنظام • والمعروف عن الشعور بالقومية أنه ينتهى بالتطرف، ولكنه يمكن أن يعتبر قوة هامة فى متناول الحكومة القومية •

وقد تستخدم هذه القوة فى الاطاحة بالظالمين أو فى ذل الآخرين أو فى صد الغزاة أو فى غزو اراض اخرى وفى اغتصاب ارض جديدة من البحر او اغتصاب اقاليم جديدة من المناطق المجاورة وفى بناء دولة يعمها السلم والرخاء أو فى تقطيع أوصال قارة •

ان القومية فى حد ذاتها ليست خيرا ولا شرا ، انها عاطفة قوية تدفع الجماعات الكبيرة من الناس الى العمل فى وحدة من اجل أغراض صالحة أو خبيثة • وهى غالبا ما تثير الاسف لأنها شعور بالوحدة يقف عند الحدود الوطنية • ولذلك فطريقة الاعراب عنها كثيرا ما تكون بالعمل من جانب احدى الدول ضد

دولة أخرى وسبب ذلك أنها قوة تؤدى الى الانقسام بين الدول، غير أن القومية قوة موحدة داخل الدولة . اذ أنها تربط جماعات كان يمكن أن ينقسم بعضها ضد بعض ، ويمكن استخدامها لتحقيق أى غرض انشائى يتطلب عملا موحدا من جميع المواطنين فى الدولة .

اننا ننظر الى الوحدة القومية فى العمل كما لو كانت مجرد نتيجة لدرجة تشابه جماعة من الناس ولدرجة شعورهم بأنهم متشابهون . والحقيقة أن الوحدة فى العمل هى سبب من أسباب المتاعب القومية والتماثل القومى . وقد يقول المرء أن الناس يشعرون بشخصية مشتركة تدفعهم الى العمل كوحدة واحدة لانهم متشابهون كثيرا فى كثير من الخصائص الهامة . والحقيقة أن هذا رأى صائب ولكن الحقيقة أيضا ان سلوك الافراد سلوكا مشتركا لتحقيق هدف مشترك يزيد شعورهم بالوحدة وعندما يشعر الناس بأنهم يتقاسمون شخصية مشتركة يصبح كل منهم شبيها بالآخر .

والواقع أن الوحدة القومية لا تكون أبدا كاملة اذ أنها تتفاوت فى درجة اكتمالها ، وكما لا يوجد تجانس كامل لايوجد أيضا شعور كامل بالشخصية القومية . فهناك دائما مصالح أفراد لا يتقاسمون المشاعر الوطنية العامة . وعندما يلزم توفر

الوحدة فى العمل لجد بعض المنشقين والمخالفين الذين لا يسعون فى سبيل تحقيق الهدف المشترك من كل قلوبهم •

ان درجة الوحدة القومية ـ أو التماسك اذا أردنا استخدام هذا التعبير ـ تختلف من دولة الى أخرى ومن وقت لآخر • ومن العسير أن لعين جميع العوامل التى تحدد هذه الاختلافات وسنبحث بعضها عندما نبحث الروح المعنوية القومية ولكن يجب علينا أن نذكر أن الوحدة القومية تزداد كثيرا كلما تعرضت الدولة للهجوم من الخارج ، وهذا ما تتميز به الكثير من الجماعات فقد يتعادل بعض أعضاء الجماعة وبعضهم الآخر بعنف وشدة ولكنهم يتحدون ويؤلفون جبهة واحدة عندما يتعرضون لهجوم خارجى وبغض النظر عن أسباب الوحدة فلابد من أن يتوفر فى الدولة قدر معين من الوحدة فى العمل •

ويكتب البقاء للدولة طالما كان أعضاؤها متماسكين ومتحدين وتتأثر قدرة الدولة على التعامل مع الآخرين كثيرا بدرجة تماسك القوى الداخلية فيها ، وقد يكون لجماعة من الناس حكومة مشتركة واقليم مشترك ، وقد يؤلفون وحدة اقتصادية ويتكلمون لغة مشتركة ويشتركون فى الثقافة والدين والايدلوجية السياسية والتاريخ ، ولكن بدون الشعور بالوحدة والقدرة على العمل جنبا الى جنب لن تقوم للدولة قائمة • اذ أن هذه

الخاصية تمتاز عن غيرها من الخصائص فى توحيدها لأعضاء الدولة فى عمل مشترك ومن أجل تحقيق هدف مشترك يجعل الدولة أهم وحدة فى السياسة العالمية اليوم .

تاريخ الدولة المؤلفة من أمة واحدة

لم تكن الدولة على الدوام ذات أهمية فمنذ خمسمائة عام لم تكن هناك دول مثل تلك الدول التى نعرفها اليوم بل منذ ثلاثمائة عام فقط لم يكن الولاء للوطن أهم ولاء جماعى عند معظم الناس ، فللدولة تطور حديث نسبيا ، ولكنها أحدثت تغيرات عظيمة حتى خلال تاريخها القصير .

ويمكننا أن ننظر إلى التطور التاريخى للدولة فى خطوطه العريضة على أنه عملية تنطوى على زيادة عدد الذين يمتلكون الثروة فى الدولة وكانت الدولة تتألف من جماعة من الملوك والنبلاء أما بقية السكان فكانوا يعتبرون ممتلكات يمكن الحصول عليها عن طريق الحرب . وأصبحت الدولة بالتدريج تضم البورجوازيين الذين كانوا يشعرون بالشخصية القومية . وفى السنوات الاخيرة ازداد توغل كتلة عامة الشعب الكبيرة فى الدولة حتى أصبحنا نرى الدول وحدات تضم كل السكان الذين يعيشون تحت سلطة حكومة مشتركة .

ويمكن تتبع التطور الرئيسى التالى بتتبعنا لتاريخ الدولة. فكما ازداد عدد الافراد الذين تضمهم الدولة تغير شعور الناس بالارتباط بها ولنتتبع هذين التطورين بشىء من التفصيل .

ويمكن أن نقسم تاريخ الدول المؤلفة من امة واحدة الى ثلاث فترات عند بحثنا لهذا التاريخ . ولا يقصد بهذا التقسيم الا تسهيل البحث . وفى الحقيقة أن التغييرات التى حدثت كانت مستمرة حيث لاتوجد حدود فاصلة بين أية فترة وأخرى وبالاضافة الى ذلك انتقلت دول مختلفة من فترة لاخرى فى أوقات مختلفة . وأخيرا يجب أن نذكر أن بعض الدول مرت بالطريق الذى مرت به غيرها من الدول ، فالدول الحديثة التى تألفت فى عصرنا قد يكون لكل منها تاريخ يختلف كل الاختلاف عن تاريخ غيرها من الدول .

وعلى أى حال من الممكن أن نعمم هذه الفكرة الى حد ما فتشمل دول أوربا ، واذا نحن فعلنا ذلك فسوف نكون فى وضع أحسن يساعدنا على أن نرى أجزاء هذا الاطار العام للتطور التى يمكن تطبيقها على الدول الحديثة غير الاوربية ، والأجزاء الاخرى التى لا يمكن تطبيقها .

وسنقوم بتصوير الفترات الثلاث للتطور القومى مع مراعاة الشروط السابقة وسنطلق على هذه الفترات ـ الفترة

القبلية ــ والفترة البرجوازية ــ والفترة الحديثة • واذا نظرنا الى تاريخ غربى أوربا والولايات المتحدة وروسيا يمكننا أن نقول ان الفترة القبلية بدأت عام ١٥٠٠ تقريبا ــ فى عهدهنرى الثانى بانجلترا ولويس الثانى عشر فى فرنسا وفرناند ايزابيل وايفان الرهيب بروسيا ــ واستمرت حتى نهاية حروب نابليون عام ١٨١٥ •

أما الفترة البرجوازية فاستمرت من عام ١٨١٥ حتى عام ١٩١٣ عند نشوب الحرب العالمية الاولى وبدأت فى انجلترا قبل ذلك التاريخ وتأخرت الى حد ما فى الولايات المتحدة وروسيا حيث انتهت بالثورة ، أما الفترة الحديثة فبدأت منذ الحرب العالمية الاولى تقريبا ولم تنته بعد •

فترة حكم الاسرة المالكة

قامت الدول المتألفة من أمة واحدة على انقاض المجتمع الاقطاعى •• وكانت نتيجة الصراع العسكرى الذى لجأ اليه الملك الذى كان له نفوذ أوسع قليلا من السيد الاقطاعى فى اخضاع الاقطاعيين الاسميين لسلطته الحقيقية • وكان من الصعب تأكيد هذه السلطة طالما كان الملك يعتمد على نصيحة وتأييد الاقطاعيين التابعين له الذين كانوا يقودون جيوشا خاصة تتألف من أتباعهم • وكان الملك القوى فى حاجة الى تأييد جديد

من مكان آخر يمكنه من اخضاع الاقطاعيين • وقد وجد هــذا التأييد فى انشاء جيش من الجنود المرتزقة وزيادة اعضاء الجهاز الادارى الفنى الذين كانوا يعتمدون على الملك فى الحصول على أسباب المعيشة وعلى قوتهم •

وفى أثناء هذا تمثلت الدولة فى شخص الملك • وربما شعر اعضاء طبقة النبلاء الذين على علاقة طيبة بالملك ببعض التماثــل مع الملك كما كان يشعر اعضاء اسرته وكما كان يشعر أفراد النظام الادارى فى الدولة الذين كانوا يقومون بخدمته ببعض التماثل الذى يشعر به الخدم نحو سادتهم او الذى يشعر به الموظفون فى العصر الحديث نحو رؤسائهم ولكن لم يكن يعتبر بقية الناس الذين يعيشون داخل الاراضى الوطنية اعضاء فى الدولة بأى حال من الاحوال • وطبعا لم يكن الملك ولا النبلاء ينظرون اليهــم باعتبارهم اعضاء فى الدولة بل كانوا يعتبرونهم مجرد رعايــا خاضعين تفرض عليهم الضرائب وكانوا يعتبرونهم سلعا تبــاع وتشترى لصالح القبائل •

وكان الملك ينظر الى مملكته على انها ممتلكات شــخصية يتصرف فيها كما يشاء وكان من الغريب عليه أن يعامل رعاياه كما يعامل الملوك رعاياهم فى العصر الحديث كما هو من الغريب علينا ان ننظر الى قطيع الماشية على أنه من اعضاء الأسرة •

وكان الرعايا من جانبهم لا يهتمون كثيرا بالمنازعات التى تنشب بين الملوك ولم يشترك الرعايا فى الحروب وكانوا لا يعبئون كثيرا بالشخص المنتصر طالما كانت المناورات العسكرية تحدث بعيدا بحيث كانت تحول هذه المسافة دون اغارة جيوش الاعداء أو الأصدقاء على الأراضى. وقد يشعر أهل المدينة وخاصة سكان العاصمة ببعض القلق على ثروات الحاكم غير أن الحياة اليومية والتجارة الدولية كانتا تسيران على خير ما يرام فى فترات الحرب والى جانب ذلك كان التجار وغيرهم من سكان المدينة يمثلون نسبة صغيرة جدا من مجموع السكان . وكانت أغلبية السكان تتألف من الفلاحين الذين كانوا على درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتى والذين كانوا نادرا ما يتعرضون للناس او الافكار فى غير المناطق التى يعيشون فيها . وكان ولاؤهم ينصب على قريتهم ومنطقتهم ، وكانوا لا يهتمون كثيرا بالملك او المحكمة أو البناء السياسى الجديد الذى كان ينمو ، بل لو اختفى النظام السياسى تماما فى ليلة واحدة لما ثار الناس كثيرا .

ولقد كتب كارلوليفى عن منطقة تقع فى جنوبى ايطاليا ما زال الفلاحون فيها يعيشون الى اليوم فى ذلك العالم الآخر الذى تطوقه التقاليد والاحزان المعزول عن التاريخ وعن الدولة فى حضارة خاملة ساكنة ، ترى ما معنى الدولة عند هؤلاء القوم ؟

وكما أن المذاهب السياسية التى تحرص عليها الدولة قد بعثت

صورة خيالية للوحدة القومية بين السكان الذين كانوا يتألفون من فلاحين لا يهتمون بأى شىء كذلـــك فرضـــت السياسات الاقتصادية التى طبقها «التجاريون» اقتصادا قوميا على النظام السابق الذى كان يقوم على الاكتفاء الذاتى واصبحت التجارة والصناعة عظيمتى الاهمية بالنسبة للملك لأنه كان يستعين بهما للحصول على الذهب والفضة اللازمين لدفع رواتب الجنـــود وأعضاء السلك الادارى فى الدولة غير أن الحكومة القومية لم تكن تهتم بأوجه النشاط الزراعى الذى كان يشغل معظم رعاياه .

ولكن حدثت تغيرات فى ذلك الوقت فكانت تزداد المدن فى الحجم والأهلية وكانت وسائل المواصلات فى طريق التقدم مما قلل تعلق الأفراد بالمناطق التى يعيشون فيها . وكانت التجارة تزداد أهمية على حين أخذت تظهر طبقة جديدة من التجار وأخـــذت ثرواتها ونفوذها فى الزيادة وكانت هذه التغيرات توحى بظهور فترة جديدة . وكلما حدث تغير اجتماعى فاننا يمكن ان نجـــد جذور أية فترة من الفترات السابقة عليها .

الفترة البورجوازية

كان القرن التاسع عشر فى غربى أوروبا وأمريكا يعتبر قرن التصنيع العظيم . وكلما تقدم هذا القرن غيرت الثورة الصناعية وجه الريف وأوجدت اقتصادا جديدا ونظاما جديدا يربط بين

الطبقات الاجتماعية وطابعاً سياسياً جديدا وفى ذلك الوقت تظهر فى الوجود دولة من نوع جديد ٠

وكانت هذه الدولة هى دولة البورجوازية وهى جماعة بدأت على شكل مجموعة متباينة من التجار والمغامرين تطورت حتى أصبحت طبقة اجتماعية هامة غنية محترمة جديدة ٠ وعندما انهمكت هذه الطبقة فى بناء اقتصاد جديد فى نطاق الدول الملكية القديمة ودكت دعائم هذه الدولة من النظام الاقتصادى والاجتماعى الذى وضع الارستقراطية والكنيسة فى مركز ينعمون فيه بالقوة ولقد وجد الملوك انفسهم يتجهون ناحية البورجوازية للحصول على تأييدها كما كانت تسعى البورجوازية بدورها لتقوية نفوذها فى تسيير شئون الحكم ٠ ولقد ادت زيادة الثروة الاقتصادية لدى هذه الجماعة الجديدة بالاضافة الى مقدرتها الادارية التى ينميها اعضاء هذه الجماعة ـ أدت الى تقوية مركزها فى تسيير شئون الدولة ٠

وفى عام ١٨١٥ بدأت الطبقة البورجوازية توجه الملوك الذين على وشك السقوط أو بدأت تجعلهم يعملون كأنهم أدوات للزينة على حين بدأت تمسك بزمام الحكومة عن طريق النظم السياسية الجديدة للديمقراطية البرلمانية ٠

يجب عدم الخلط بين الديمقراطية البورجوازية الجديدة او

الديمقراطية المتحررة فى القرن التاسع عشر بديمقراطية الجماهير فى هذه الايام . فكانت كلمة « الشعب » فى الوثائق القديمة عن الحرية والديمقراطية تعنى الشعب الذى لديه ممتلكات ، فكانت الملكية اساس السلطة السياسية فى القرن التاسع عشر ومن لم يكن لديه ممتلكات لم يكن يعتبر من الشعب . ولقد حرمت جماهير الشعب الغفيرة الاشتراك فى محيط السياسة بشكل فعال — حتى فى بلد مثل فرنسا — طالما كانت تهدف الى القضاء على الطبقة الارستقراطية وتمكين الطبقة البورجوازية من الحكم .

وما نجحت الثورة الفرنسية الا لان الامة الفرنسية باسرها قد نجحت فى توحيد كلمتها ومن أهم أسباب انتصار نابليون على أوربا انه كان يتمتع بتأييد جماهير الشعب ويستند الى أول جيش ضخم معبأ فى التاريخ الحديث . ولم تهزم فرنسا الا بعد أن قلدها اعداؤها غير أن حماسة جماهير الشعب والجيوش الضخمة كانت تثير الخوف بين أفراد الطبقة الوسطى . لذلك ألغى قانون الخدمة العسكرية الاجبارية وأصبح من الواضح أن مبادىء الثورة ولا سيما مبدأ « المساواة » لن تطبق حرفيا . وكانت الطبقة الوسطى — بعد نجاح ثورتها — تخشى فقد مركزها لو تحركت جماهير الشعب ثانية . وكانت الطبقة الوسطى فى اثناء الفترة البورجوازية تحتقر الجماهير التى لا تمتلك اية ممتلكات وتشك فيها ولقد

انعكس هذا الاحتقار وذلك الشك فى النظم السياسية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت •

ولم يكن الاقتصاد الجديد والفئة الحاكمة الجديدة ومجموعة الهيئات السياسية الجديدة الاشياء الوحيدة التى تحققت فى الفترة البورجوازية • وكان ينمو أيضا نوع جديد من الشعور الوطنى فلم يكن الحكام الارستقراطيون القدماء وطنيين فى الفترة القبلية وكانت الحروب التى نشبت بينهم ترجع الى منـــازعات شخصية دون أن تتعلق بالنواحى الوطنية وعندما تتوثق عرا الصـــداقة • وكانوا يتزاورون ويتزاوجون فيما بينهم ويخدم بعضهم بعضا وكان بعضهم أقرب الى بعضهم الآخـــر فى النواحى التعليميـــة والثقافية وفى أساليب المعيشة منه الى رعاياهم غير الارستقراطيين•

ولقد نقلت الطبقة الارستقراطية كثيرا من هذه الاوضاع نفسها الى الفترة البورجوازية واستمروا فى اعتبارهم لانفسهم مجتمعا دوليا وفى الابتعاد عن العمال بل انهم كانوا يبتعدون عن الأغنياء المحدثين • لذلك لم تكن الطبقة الأرستقراطية هى التى بعثت الشعور الوطنى الجديد •

وكانت الطبقة المتوسطة هى التى تجانست مع الدولة ، ولقد كتب الكثير عن الطابع الدولى الذى تميزت به البورجوازية فى هذه الفترة • والحقيقة ان هذه الطبقة البورجوازية كانت تتحـــد فى بعض المواقف بصرف النظر عن الجنسية وكانت تربـــط

بين أفرادها مصالح مشتركة وايديولوجية اقتصادية وسياسية مشتركة وكانوا يشتركون فى الخوف من جماهير الشعب التى هى أدنى منهم فى الوسط الاجتماعى •

وليس من التناقض ان نقول ان الطابع الدولى الذى تميزت به هذه الطبقة لم يقف حائلا امام طابعها القومى • فقد كان طابع الطبقة الوسطى الدولى فى القرن التاسع عشر يقوم على أسباب اقتصادية على حين كان يقوم طابعها القوى على أسباب سياسية وثمة مبدأ اساسى من مبادىء القرن التاسع عشر وهو مبدأ عدم الخلط بين الاقتصاد والسياسة لذلك كان من الممكن ان يعنى رجال الاعمال فى هذه الفترة بمصالحهم الشخصية فى معاملاتهم مع المواطنين فى أية دولة أخرى ويشعرون فى الوقت نفسه بأنهم مواطنون صالحون سواء أكانوا ألمانا أو فرنسيين أو أمريكيين كيفما كانت جنسيتهم •

الحقيقة ان التصنيع كان يوحد المنطقة فى ظل سلطة سياسية واحدة ويجعل من كل دولة وحدة اقتصادية واجتماعية • فى ذلك العصر انشئت السكك الحديدية وهاجر الكثير من ابناء الريف الى المدن وسهل فيه انتقال الناس والبضائع لأول مرة • وفى هذا العصر نفسه تحولت فيه الأعمال التجارية الفردية وشركات التضامن الى شركات مساهمة ضخمة واخذ يزداد عدد رجال

الاعمال الذين يفكرون فى توسيع نطاق نشاطهم وعدم الاكتفاء بالاماكن المحلية •

ولا عجب فى أن ينتاب الطبقة الوسطى شعور متزايد بالوحدة القومية • ولم يكن لجماهير الشعب الغفيرة نصيب كبير فى هذا الشعور • فقد كانت آفاقهم أضيق ولكن ظهرت علامات تدل على المستقبل • فكان أهل الريف يفدون على المدن التى كانت تزداد اتساعا وكانوا بذلك يحطمون الروابط المحلية القديمة التى كانت سائدة بينهم بل كانت فكرة الاكتفاء الذاتى المحلى فى سبيل الانقراض فى المناطق الريفية وكان الولاء المحلى القديم فى سبيل الزوال • •وأصبح المواطنون لا يدينون بالولاء لمكان معين لذلك فقدوا شخصياتهم المحلية القديمة غير انهم لم يصبحوا أعضاء كاملين فى المجتمع القومى •• وكانوا مستعدين لنوع جديد من الاشتراك مع مجال السياسة لان التصنيع طبقا لقواعد الدولة البورجوازية لم يكن دائما مريحا بالنسبة لهم • فقد كان هذا قرن البورجوازية ولكن بانتهاء هذا القرن بدأ العامة يطالبون باعطائهم نصيبا أكبر فى الاقتصاد الجديد وبتقوية نفوذهم فى الدولة الجديدة التى انشأها البورجوازيون •

الفترة الحديثة

ودلت الحرب العالمية الحديثة على أن الدول قد دخلت فترة

جديدة من فترات تاريخها .. ويمكننا ان نرجع بالتغيرات التى أدت الى التطورات الحديثة الى عدة سنوات مضت .. غير انه لم يتضح مدى التغير الذى طرأ على الدولة الا بعد انتهاء الحرب. ففى السنوات التى اعقبت الحرب ظهرت حكومات استبدادية جديدة وطرأت تغيرات بعيدة المدى على الدول الديمقراطية ايضا.

ويبدو أحيانا أن الدولة كما نعرفها اليوم والقومية كما نشعر بها اليوم ايضا هما ظاهرتان موجودتان على الدوام أو على الاقل لعدة قرون . وقد يثير دهشتنا أن ندرك انهما ظاهرتان حديثتان.

وأهم مزايا الفترة الحديثة هى :

١ ــ توحيد الشعب داخل الدولة .

٢ ــ تعزيز الخطوط الفاصلة بين الدول .

٣ ــ نوع جديد من الاندماج الكلى فى الدولة من جانب السكان بأكملهم وتتوفر هذه الميزة الأخيرة فى الدول الجماعية حيث يجد المواطنون حياتهم كلها توجه بما هو فى صالح الدولة كما تتوفر ايضا فى الدول الديمقراطية حيث تعمل الدولة على خدمة مصالح الشعب كله . وفى كلا الحالين يزداد تأثر الناس بأوجه نشاط الحكومة القومية واهتمامهم بها .

بحثنا حتى الآن الطرق التى كانت تساعد التصنيع ومـــا صاحبه من تقدم وسائل المواصلات والتنظيم الاقتصادي الكبير

لتوحيد الدولة • كما بحثنا بعض الطرق التى تستعين بهاالحكومات الوطنية لتشجيع هذا التوحيد فى الوقت الذى تقف فى سـبيل ارتباطها بالعالم الخارجى •

ولنبحث الآن بعض اسباب ظهور ما نسميه باشتراك جماهير الشعب فى تسيير شئون الدولة •

ولأول مرة فى التاريخ تمكن الانسان بمساعدة الآلات من انتاج منتجات كافية لكل انسان فكان فى استطاعة الغنى ان يظل غنيا والفقير ان يحصل على منتجات وفيرة • وأخذ الدخل يزيد فأصبح الفقراء يطالبون بزيادة نصيبهم فى الدخل •• وأكثر من ذلك أنه كان فى استطاعة الاغنياء أن يقدموا لهم هذا الجزء • وكان عامة الشعب يرون فى الافق أنهم نظموا أنفسهم للحصول عليها •

وكان أمامهم سبيلان للتنظيم الاول هو انشاء نقابات العمال والآخر الاشتراك فى السياسة • ولقد اتبعوا كلا السبيلين •

وربما كان من الطبيعي ان ينظم العمال انفسهم ليسـاوموا أصحاب الاعمال لرفع أجورهم ولتحسين ظروف العمل • وكان عدد العمال كبيرا وقد قوى مركزهم بعـد أن نظموا أنفسهم • وحصل عامة الشعب على حق التصويت وبالتوسع فى منح حـق التصويت تحطمت الحلقة الاخيرة فى السلسلة التى كانت تفصل

بين الجماهير والدولة . وأصبح العاديون من الناس فى الدولة يجدون سبيلا دستوريا للاعراب عن مطالبهم .

وكان انتشار التعليم بين الناس عظيم الاهمية لانه كان ضروريا للحياة المعقدة السائدة فى المجتمع الصناعى الذى يتألف من مدن كبيرة ولكن التعليم العالمى زود جماهير الشعب بالمهارة التى كانوا يحتاجون اليها لتنظيم حقوقهم السياسية الجديدة ولممارستها .

وكانت مطالبهم متعددة . وكان النظام الاقتصادى من قبل قد انتقل بالعمال العاديين الى نهاية الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية وكان عليهم ان يستوعبوا معظم الصدمات والمصاعب التى يكتنفها الانتقال من المزارع الى مراكز الانتاج الاولى وكان من الممكن تكديس رأس المال الذى كان لابد منه للنظام الصناعى على الاقل بالاحتفاظ بمستوى معيشتهم منخفضا . وجعل مبدأ الحرية الاقتصادية الذى لازم الفترة البورجوازية . وفى الامكان ادخال تعديلات اقتصادية تلقائية بين الدول كما يحدث بين الافراد . غير أن هذه التعديلات التلقائية كانت تتم على حساب الضعيف وفى خلال القرن التاسع عشر كان العمال هم الضعفاء فى جميع الدول . وعندما وصلوا الى ميدان السياسة تحولوا الى الدولة لتساعدهم .

وقال أ. هـ. كار فى هذا الشأن :

« لم تكن قوة جماهير الشعب من الضخامة بحيث تحميهم من المصاعب والمتاعب الجمة التى فرضها عليهم مبدأ الحرية الاقتصادية فى مجال الصناعة .. لذلك وجهت الجماهير سلطتها السياسية فى سبيل تحسين مستواهم الاجتماعى والاقتصادى . ولم يعد هدف السياسة القومية الاول مجرد المحافظة على النظام والسلوك وهو ما كان يعرف بالاعمال العامة ولكن كان هدفها العمل على رفاهية افراد الدولة وتمكينهم من كسب عيشهم وكان تطبيق المبادىء الديمقراطية فى الدولة خلال الفترة الثانية (وهى الفترة البورجوازية) كان يعنى تأكيد المطالب السياسية للطبقة الوسطى المسيطرة .

أما الفترة الثالثة فهى تضع مطالب الجماهير الاقتصادية فى المقدمة . وتهتم السياسة القومية بمسألة الدفاع عن الاجور وظروف العمل بل يجب تأكيد أهمية هذه المسألة أمام السياسات القومية عند الدول الاخرى ان دعا الأمر الى ذلك .. وهذا من شأنه ان يثير اهتمام العامل بالسياسة والسلطة فى بلاده . »

وبالاختصار تعهدت الدولة بان تقوم بما قامت به الجماعات الصغيرة نحو الفرد فى الماضى .. وقامت الدولة التى تتألف من أمة واحدة بين الفرد والقوى المعادية التى كانت تهدده .

وكانت الدولة تقوم بشكل فعال بما كان يعجز الفـرد او الجماعات الصغيرة عن القيام به ، واتجه الفرد اكثر فاكثر نحو الحكومة القومية لحمايته من اعدائه السياسيين فى الخارج .

ومن الواضح أنه يتعرض للخطر كلما تعرضت الدولة للخطر .. فلو خسرت الدولة معركة هامة فلا شك فى انه سيعمل على تغيير اتجاهه بحيث يفى بمطالب المنتصر .

وكما أن الفرد يزداد اعتمادا على الدولة فان الدولة كانت تزداد اعتمادا عليه . واصبحت جماهير الشعب اليوم اكثر أهمية مما كانت فى أى وقت مضى . وتعتمد الصناعة الحديثة عليهـم لا باعتبارهم عمالا فحسب ولكن باعتبارهم مستهلكين ايضا .

وتعتمد الدولة عليهم لا لانهم من دافعى الضرائب فحسـب ولكن لانهم ناخبون وجنود فى الجيوش التى يتطلبـها الدفاع الجديث .

وقد كان ماركس على خطأ فالعامل وجد لنفسه وطنا ومـا عمق شعوره نحو بلاده سوى دليل على دوره الجديد فى تسيير شئونهـا .

الدول الجـــديدة

ان المعالم التاريخية التى تتبعناها حتى الآن يمكن تطبيقها

على دول أوروبا وعلى الولايات المتحدة ولكن ماذا عن بقيـــة العالم ؟

وماذا عن القائمة الطويلة من الدول التى ظهرت على الوجود منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ؟

ان تاريخ هذه الدول فى الماضى كان يختلف طبعا عن تاريخ غيرها من الدول الاوروبية بل يحتمل جدا أن يختلف مستقبلهـا أيضا عن مستقبل الدول الأخرى ويمكننا أن نلاحظ أوجـــه شبه كبيرة لو تعمقنا فى التفاصيل .

تتيح لنا الدول الجديدة فى مرحلتها الاولى (اى فى المرحلة المقابلة لفترة حكم الاسر المالكة فى أوروبا) أنماطا شتى ولم يكن بعضها دولا بل كانت مجموعات من القبائل الصغيرة والممالـك الى أن هزموا على يد الاوروبيين وتحولوا الى وحدات سياسية أكبر . وكان بعض آخر قد تحول الى دول تحكمها الاسر المالكة قبل مجىء الاوروبيين (مثل قبائل الانكاس والصينيين) وحقق بعضها الاستقلال السياسى فى وجه التدخل الاوروبى (والمثال على ذلك الصين واليابان) غير أن معظمها لم يتمكن من ذلك .

ومن ثم كان الاستعمار على يد الغزاة الاوروبيين هو السائد فى هذه الفترة والواقع أن هذا الغزو فى كثير من الحـالات كان العامل الاول الذى تأثرت به الدول عند بدء تكوينها .

من المقرر ان هذه الدول تدين بوحدتها وتطـــورها الى السيطرة الخارجية . ولقد احدثت هذه الحقيقة تغييرا عظيما فى تاريخها الوطنى . ففى هذه الحالات كان الاوربيون هم الذين أزالوا روح الانعزالية المحلية فى محاولتهم للسيطرة على مستعمراتهم وادارتها وهم الذين بعثوا بوادر الاقتصاد الوطنـــى واتاحوا للوطنيين الشعور بشخصية مشتركة عندما ميزوا انفسهم عــن الوطنيين وأوجدوا عدوا مشتركا يشعر الوطنيون بكراهيته وأخيرا خلق الاوربيون صفوة وطنية جديدة وعلموا هذه الصفوة المثل العليا والمهارات التى مكنتهم فى النهاية من طرد الاوربيين .

وليس من قبيل المصادفة ان يجد المرء على رأس كل ثـورة استعمارية ناجحة بعض الوطنيين الذين دربهم الاوربيـــون فى المستعمرات يقودون اخوانهم المواطنين الى القتال . وليس من قبيل الصدفة ان تكون المبادىء التى يحاربون من أجلها هـــى المبادىء الاوربية نفسها فى الحرية والديمقراطية والرخاء .

وهناك تشابه كبير بين هذه الدول المستعمرة وبـين الدول الاوربية فى مرحلتها الاولى . ويحدث لهم ما حدث للاوربيين من قبل اذ يخضعون لحكام مستبدين يعتبرون رعاياهم كأيـــة ممتلكات قد تعنيهم رفاهيتهم ولكنهم ليسوا اعضاء عاملـــين فى الوحدة السياسية .

وتتألف جماهير الشعب من الفلاحين الذين يحرصون على مصالحهم المحلية وولائهم للمنطقة التى يعيشون فيها كما حدث فى أوربا من قبل ويكون الاقتصاد الوطنى عبارة عن قشرة رقيقة تخفى تحتها نظام الاكتفاء الذاتى المحلى ، وخلال هذه الفتـرة تتقدم وسائل المواصلات وتتسع المدن وتخفت حـــدة الروح الانعزالية المحلية وتظهر طبقة جديدة من رجال الاعمال وهـذا ما حدث فى أوربا تماما . وليس ثمة ما يدعو الى الاسـهاب فى ذكر الحقائق لنثبت ان عالم المستعمرات كان ايضا يقابـل فترة حكم الاسر المالكة فى تاريخ الدول الاوربية .

وعندما تظهر الصفوة المتأثرة بالحضارة الأوربية وتبدأ فى فهم :قائق الاقتصاد والحديث والبنـــاء السياسى الحديث يزداد الضغط لتحقيق مبدأ الحكم الذاتى . وقد حصلت بعـــض المستعمرات على استقلالها وهى لا تزال فى فترة حــكم الاسر المالكة . فالعربية السعودية مثلا دولة مستقلة ولكنها ما زالت اقطاعية . ولكن بالنسبة لمعظم المستعمرات لا يتحقق الاستقلال الا عندما تكون الصفوة على استعداد لتولى مقاليد الامور من الاداريين فى المستعمرات . فهــذه الصــفوة تثير الشعب كله وتدفعه الى التمرد ، ولكن بانتهاء فترة الثورة لا يتساوى جميع السكان فى الاستفادة من طرد الاوربيين . فيتولى الحــكم فى

الدولة الأشخاص الذين قادوا الثورة أما بالنسبة لجماهير الشعب فان حياتهم لا تتغير كثيرا عما قبل ولا يشتركون فى ادارة شئون الدولة الجديدة بعد تلك الفترة القصيرة التى تحدث فيها الثورة والتى تكون فيها اعدادهم الغفيرة ذات أهمية عظيمة .

وقد نحيد عن الصواب لو دعونا هذه الصفوة الجديدة ـ بالبرجوازية ـ على الرغم من وجود بعض العناصر البرجوازية فيها . وأفراد هذه الصفوة أغنياء وبعضهم قد جنى ثروته من ملكيته للمشروعات الحديثة غير ان هذه الفئة تضم أيضا فى معظم الاحيان خليطا من الطبقة الارستقراطية القديمة التى حصلت على ثروتها من المركز السياسى وملكية الاراضى ، وأكثر من ذلك أن هذه الصفوة الجديدة أكثر استعدادا لاستخدام أجهزة الحكومة المركزية القوية لتحقيق أغراضها من الفئة المقابلة لها فى أوربا .

وهناك أيضا أوجه شبه بين المرحلة التى تعيش فيها معظم الدول الحديثة النشأة وبين الفترة البورجوازية فى أوربا ـ فهى الفترة التى يبدأ فيها التصنيع فى نشاط والتى تتولى مقاليد الامور فيها هيئة حاكمة جديدة والتى غالبا ما تظهر فيها أشكال الحكم الديمقراطى والتى تظل فيها جماهير الشعب غير مشتركة اشتراكا كاملا فى مجال السياسة ـ غير ان الخلاف واضح أيضا

بين هاتين الفترتين ، فقد زاد شـــعور هذه الدول الجديدة بالقومية أثناء صراعها من أجل تحقيق الاستقلال الســـياسى فى فترة من فترات تاريخها أقرب من الفترة التى حـدث فيهـا الشيء نفسه فى أوربا • كما أن هذه الدول لا تتسم بالصبر على التطور البطيء الذى اتسمت به شقيقاتها من الدول الاوربيـة فى محاولتها اللحاق بالدول الصناعية المتقدمة التى سبقتهـا فى هذا الميدان •كما حدث فى روسيا اذ تختصر هذه الدول مرحلتها البورجوازية أو مثلما حدث فى اليابان أو الصين ، فقد تتخطى هذه المرحلة تماما وتنتقل دفعة واحدة الى نظام الحكم الجماعى متعجلة التصنيع دون أن تعبأ بما قد تدفعه جماهير الشعب فى سبيل ذلك • بل حتى أولئك الذين يرغبون فى اقامة التصنيـع على النمط الديمقراطى السائد فى الغرب ، فانهم قد يعتمـدون على توجيه الحكومة للتعبيرات التى تحدث أكثر من اعتمـاد دول أوربا على حكوماتها من قبل •

وفى كلتا الحالين يحتمل أن نشهد ظهور مرحلة بيروقراطية • ففى خلال هذه الفترة يحكم الدول موظفون فنيون قد يكونون خداما وقد يكونون سادة من عامة الناس الذين يحـــكمون باسمهم وهذا أكثر احتمالا • وربما لا نخطيء اذا تكهنـا بأن تكون هذه المرحلة مصحوبة بشعور متأجج بالقوميـة • وربما

دخلنا نحن جميعا معشر الدول الجدبدة والقديمة معا مرحـــلة جديدة تخفت فيها جذوة القومية غير اننا ما زلنا بعيدين جـــدا عن هده المرحلة •

ان استعراضنا القصير لتاريخ الدولة قد أعطانا فـــكرة ما عن كيفية ارتباط تطور هذا الشكل من أشكال التنظيم السياسى بالتطورات الاخرى التى حدثت وبالتصنيع وبتطور المدن والتطور الاقتصادى الجديد وظهور فئات حاكمة جديده • ان بحثنـــا للروابط التى تربط شعب أية دولة قد أظهر لنا مدى تعدد هذه الروابط اذ توجد روابط سياسية واقليمية واقتصادية وثقافيـــة ولغوية ودينية وأيديولوجية ونفسية• ورأينا بالذات قوة القومية وما تفى به من حاجات الفرد والدولة • ورأينا أن القومية قوة فعالة فى الدول التى تآلفت حديثا •

وقد أثير فى بداية هذا الفصل سؤال هو : هل الدولة تقل فى الاهمية ، وهل ستحل مكانها وحدة سياسية أوسع نطاقا قـــد تشمل العالم كله أو لا ؟ •

وسلمنا بأنه قد يحدث مثل هذا التغيير فى المستقبل البعيد• اذ أن القوى التى بعثت الدولة لم تنشأ سريعا بل استغرقت زمنا طويلا حتى اكتملت كما أن تكييف الافراد الذى جعلهم يقبلون هذه الوحدة الجديدة تتطلب مجهودا شاقا •

لذلك يتطلب القضاء على الدولة كنظام للحكم ظهور قوى جديدة لا تقل عظمة عن القوة السابقة ويتطلب تكييفا لا يقـل صعوبة عن التكييف السابق ، هذا كما أن القومية لا تعتبـــر قوة عتيقة استهلكت من طول استخدامها بل على خلاف ذلك فهى تطور جديد نسبيا لم ينشأ فى الكثير من بقــاع العالم الا حديثـــا •

ولا شك أنه من السذاجة أن تؤمن بأن القومية ستكتفى بأنها خطيرة أو أن الدول ستتلاشى لسبب وجود طرق أفضل لتنظيم الجنس البشرى •

ان الدولة هى الوحدة الرئيسية فى السياسة العالمية اليــوم وقد تظل كذلك فترة من الزمن • ولهذا السبب نروى قصـــة الدول •

الفصل الثالث

الاهـداف القوميـة

قبل أن نحاول فهم الطرق التى تلتمسها الدول ، كل منهـا فى معاملاتها مع الاخرى ، فان أمرين يجب أن نعرفهما عن كل دولة :

أولهما : ماذا تريد الدولة أن تفعله ؟ أو بعبارة أخرى يجب علينا أن نعرف اهدافها، ويجب ان نقدر مدى قوتها .وسنخصص هذا الفصل والفصل الذى يليه لمناقشة الاهداف القومية .

ليس هذا الموضوع سهلا ، اذ أن الأهداف القومية أمر لا يمكن أن يلمسه المرء لأول وهلة . وتنطوى مناقشتها على كثير من المتناقضات والمغالطات . ولا يسعنـا بالضرورة هنا الا أن نبحث فى العبارات والرغبات ، وأيها تكون العبارات الصادقة ، والرغبات الحقيقية ؟ فهناك تباين كبير بين الأمور التى يستهدفها الناس والامور التى يحققونها فعلا ، كما يوجد فى الغالب تباين أيضا بين الامور التى يقول الناس انهم يستهدفونها وبين الامور التى يقومون بأدائها .

فقد كان الرومان يقولون دائما انهم يريدون السـلام بل

انهم معروفون اليوم بأنهم أقروا السلام وأقاموا القانون فى كثير من أنحاء العالم ، وأكثر من ذلك أنهم استحدثوا نوعا خاصا من السلام أطلقوا عليه اسم : السلام الرومانى . ومع ذلك فان الرومان ـ فى محاولاتهم لاقرار السلام ـ كانوا دائما فى حالة حرب . وهناك مثل رومانى معروف ما زال الكثيرون يعتقدون صحته حتى اليوم يقول : اذا كنت تريد السلام فاستعد للحرب .

مع اننا يجب أن نعرف ان هذا المثل يحمل معنى آخر هو أن النظام الاجتماعى والاقتصادى الرومانى ما كان ليكتب له البقاء دون الحرب .

وما زال هناك حتى اليوم مثل هذا الخلط حول أهداف الدول لا سيما فى عالمنا الحاضر بل فى الأعوام الأخيرة بالذات . وان القارة الاوربية لتغص بقبور الملايين الذين قتلوا فى حروب من أجل السلام . فليس من اليسير اذن أن نقول ما الأهداف التى ترمى الدول الى تحقيقها ؟

ما هى الاهداف القومية ؟

يجدر بنا ـ قبل أن نمضى فى مناقشة الانواع المختلفة للأهداف التى ترمى الدول الى تحقيقها ـ أن نوضح أولا ما هو الهدف القومى ؟.

فالهدف وضع من الأوضاع يريد ـ فـرد ما ـ تحقيقه مستقبلا ، ويبدى استعداده الى أن يبذل بعض الجهد فى سبيل ذلك ، ولا توجد الأهداف فى صورة مجردة اذ أنها تتحـدد فى رأس شخص معين . اذن فهى أهداف هذا الشخص أو ذاك .

واهتمامنا هنا يتركز حول الاهداف التى ترمى الى تحقيقها الدول ، لأن الدول هى التى تلعب الأدوار الرئيسية على المسرح الدولى ، ولكن يجب أن يكون من الواضح أن بحثنا للدول بهذه الكيفية ـ أى على انها تتصرف ولها أهداف ـ يعنى أننا نستخدم نوعا من الاختزال . فالواقع أن أفراد الجنس البشرى وحدهم هم الذين يمكنهم أن يتصرفوا ، وأن تكون لهم اهداف معينة . الا ان الافراد قد يشتركون معا فى اهداف واحـدة ، ولهم حكومات قومية تعمل من أجلهم . والى الحد الذى يكون معه هذا صحيحا يمكننا أن نتكلم عن الاهداف القومية .

وينبغى أن نلاحظ أيضا اننا لا نهتم هنا بجميع الأهداف التى تبغيها الدول ، ولكننا لا نهتم الا بتلك الاهداف التى تؤثر على الناس أو المناصب بحيث تتعدى حدود الدولة . وما لم تكن كذلك فان أهداف الدول تعتبر محلية ولا تهمنا فى هذه الدراسة . فالهدف القومى الذى يرمى الى تحسين عملية الاسكان مثلا ، أو الى الرعاية السليمة بالأطفال ، فهذا يعتبر هدفا محليا . ومن

ناحية أخرى فان الهدف الذى يقصد به زيادة انتاج الدولة مما يترتب عليه زيادة الاسلحة أو فى التجارة مع الدول الاخرى • يمكن اعتباره هدفا دوليا •

وقد يتضاءل الحد الفاصل بين الاهداف المحلية والاهداف الدولية الى حد كبير ، ومن الصعب على أى باحث أن يفرق بينها • فالهدف الذى يعتبر محليا بالضرورة ـ مثل ايجاد عمل لجميع صناع الاحذية ـ قد ينطوى على أمور دولية ـ اذا ترتب على هذه الخطوة فرض تعريفة جمركية على الاحذية المستوردة من الخارج ، فلا يمكن أن تتجاهله كما يمكن للمرء أن ينظر نظرة سطحية الى جميع المناقشات التى تسعى الى تبرير السياسات المحلية الخاصة ووضعها فى صورة أهداف دولية عامة شائعة • اذ أنه من المفروض اليوم أن جميع الامريكيين يعارضون الشيوعية ، وأصبح من الشائع أن يعضد المرء القضايا المختلفة كل الاختلاف بحجة انها ستساعد على مناهضة الشيوعية

هل تحبذ انشاء مساكن عامة حتى يمكن القضاء على الأحياء القذرة ؟ لا شك أنه ينبغى عليك أن تحدد هذا الأمر لأنه سيساعد على مناهضة الشيوعية •

هل تعارض فى انشاء مساكن عامة ؟ لاشك انه ينبغى عليك أن تعارض فى هذا الامر ، لأن ذلك يعنى أن الاشتراكية تزحف

وتتقدم ، وقد تقودنا هذه الاشتراكية الى اعتناق الشيوعية .

هل تعارض التمييز العنصرى ضد الزنوج ؟ لا شك انه ينبغى عليك أن تعارض هذا الامر لأنه يسىء الى سمعة أمريكا فى الخارج ، ويحث الناس على الاعراض عنا والاتجاه نحو الشيوعية .

هل تحبذ التمييز العنصرى ضد الزنوج ؟ لا شك انه ينبغى عليك ذلك لأنك اذا لم تحبذه فانك تتفق فى آرائك مع الشيوعيين ؟

هل تطالب بزيادة الأجور ؟ هل تطالب بتحسين الطرق الرئيسية ؟ هل تحبذ الانضمام لنقابات العمال ؟ هل تخشى رؤساءك فى العمل ؟ هل توافق على مصروفات الحكومة ؟ هل تعارضها ؟ فمهما كانت آراؤك أو وجهات نظرك ، ستجد دائما من يخبرك بأنها تساعد على مناهضة الشيوعية . ونحن لايمكننا كل المناقشات التى تتسم بهذا الطابع ، اذ الواقع انه تترتب على السياسات الداخلية نتائج دولية ، ولكننا سنحاول أن نركز جهودنا فى بحث الحالات التي يكون من الواضح أن تنطوى على أهمية دولية . اذن فاهتمامنا يتركز حول الاهداف التى :

١ ـ يشترك فيها فريق كبير ـ أو على الاقل فريق هام ـ من المواطنين بالدولة .

٢ ـ أو التى تستهدفها الحكومة القومية .

٣ ـ أو التى يقصد بها أن يكون لها تأثير كبير على شعوب الدول الاخرى .

وقد تتوحد الدول لتحقيق أهداف شتى وقد يفـرض بعض أعضـاء المدرسـة الواقعية أن جميع الاهداف القومية يمكن ـ من أجل تسهيل هذا البحث ـ أن تنحصر حول هدف واحد هو تحقيق القـوة القومية . فهم يرون أن القـوة هى الهدف العاجل الذى تسعى كل دولة تهتم بالسياسـة ـ الى تحقيقه مهما كانت أهدافها السامية .

ومع ذلك فان هذا يبدو تبسيطا للموضوع أكثـر من اللازم . فمن المؤكد أن القوة هى أهم الاهداف التى ترمى الى تحقيقها الدول ، ولكنها ليست الهدف الوحيـد بل ليست الهدف الرئيسى على الدوام . فالاهداف القوميـة تختلف فى دولة عنها فى أخرى واذا أردنا أن نفهم تصرفات الدول فى معاملاتها مع البعض الآخر ، لابد أن نفهم أولا : لا الأهداف المشتركة التى تستهدفها فحسب ، ولكن الاختلافات التى قد توجد أيضا فى آمالها وأمانيها .

ويمكننا ـ كبداية فقط ـ أن نقسم جميع الاهـداف القومية الى أربع فئات رئيسية هى :

القوة ، والثروة ، والنهوض بالنواحى الثقافية ، والسلام . وان استهداف أى من تلك الاهداف لا يعنى استبعاد الاهداف الاخرى . لأنه من الممكن لأية دولة أن ترمى الى تحقيق هذه الاهداف من جميع هذه الفئات مرة واحدة وفى الوقت نفسه . والواقع أن أى هدف منها قد يكون ضروريا لتحقيق هدف آخر . وقد ينطبق نفس هذا الشىء على كثير من الاهداف المختلفة . فقد تعمل الثروة على توفير القوة . وقد تعمل القوة على اقرار السلام . وقد يكون السلام ضروريا للمحافظة على التراث الثقافى للدولة .

الاهداف التنافسية والاهداف المطلقة

يمكننا أن نميز بين الاهداف التى يقصد بها المنافسة والاهداف المطلقة تمييزا هاما فقد تكون بعض الاهداف جديرة بالتحقيق فى حد ذاتها . وذلك بصرف النظر تماما عما تفعله الدول الأخرى . مثل رفع مستوى المعيشة أو المحافظة على الثقافة القومية .

ويمكننا أن نسمى الاهداف من هذا القبيل أهدافا مطلقة، وهناك بعض الأهداف الاخرى التى لاتعنى شيئا الا فيما يتعلق بالدول الاخرى . مثل رغبة الدولة فى أن تكون على نفس القدر من الغنى والثروة مثل دولة أخرى . أو رغبة الدولة فى أن تكون أقوى دولة فى العالم وهذه أهداف تنافسية .

ولا يمكن للدولة التى ترمى الى تحقيق أهداف تنافسية أن تركن للهدوء مطلقا حتى ولو كانت هى المتفوقة فى مضمار التنافس مع دولة أخرى • أو مع العالم أجمع ، وبصرف النظر عما اذا كانت تريد أن تكون أفضل دولة ، فان النجاح محفوف غالبا بالمخاطر •

فاذا أرادت دولة أن تكون أفضل من دولة أخرى فان فرص النجاح فى هذا الشأن تكمن فى أيدى دولة اخرى ، فاذا صادفت هذه الدولة الأخرى نجاحا فان فشلنا يكون مؤكدا •

أما اذا كان الهدف القومى هدفا مطلقا فان الدولة قد تبذل جهودا ضخمة فى سبيل تحقيقه • غير أنه يمكن أن تهدأ وتستقر بمجرد أن تبلغه • ولا يهم اذن ما اذا كانت هناك دول أخرى تفوقها فى هذا الشأن •• أو أن تلحق بها تلك الدول التى كانت متخلفة عنها • ومن الصعب بعض الشىء أن نضرب أمثلة عديدة على الاهداف المطلقة •

ويرجع ذلك الى حد ما الى أنها لا تنال من الشيوع نفس القدر الذى تصادفه تلك المواقف الدرامية التى تتنافس فيها الدول بعضها مع البعض الآخر • غير ان هذا لا يحملنا على الاعتقاد بأن الاهداف المطلقة نادرة قليلة ، فاليابان مثلا كانت

تسعى الى تحقيق أهداف مطلقة حتى أجبرت أخيرا على أن تنشىء بعض العلاقات مع الغرب • ولا تزال كثير من الدول الصغرى تفعل نفس الشيء •

فان مستوى المعيشة فى سويسرا ـ مثلا ـ مرتفع تماما ، غير انها لم تعمد الى رفعه حتى تتنافس مع الدول الاخرى •• ولننظر الى الدنمرك أو سيلان أو المكسيك ، فلا يمكن أن يقال على أية دولة منها انها تهدف أساسا الى تحقيق أهداف تنافسية

وليس من السهل دائما أن يعرف المرء ما اذا كانت دولة ما تتنافس مع دول أخرى أم لا ؟ •

ولنضرب مثلا على ذلك بالهند ومجهوداتها فى سبيل التصنيع • فان مستوى المعيشة فى الهند يعتبر منخفضا انخفاضا شديدا حتى انه من الطبيعى أن تسعى أية حكومة هندية الى العمل على رفعه • ومع ذلك نجد انه من الصعوبة بمكان أن نقول فى الوقت الحاضر ما اذا كانت جهود الهند لزيادة انتاجية البلاد يقصد بها تحسين مستوى المعيشة • بغض النظر عما تفعله الدول الاخرى ، أو ما اذا كانت هذه الجهود جزءا من محاولات الهند لتصبح دولة من الدول الكبرى فى العالم • اذ أن نفس هذا العمل سوف يعمل على خدمة هذين الهدفين معا •

ومع ذلك فانه اذا دأب زعماء دولة ما على التصريح بأن

دولتهم تتنافس مع الدول الاخرى ، واذا أيدت تصرفات دولة هذه التأكيدات ، فلن تنشب هناك أية مشكلة على الاطلاق . وليس من الصعب أن يجد المرء أمثلة من هذا النوع . فقد أوضح هتلر أن أهداف ألمانيا فى ميدان الحضارة هى تأكيد تفوق الجنس الألمانى على كافة الأجناس الأخرى ، وكان واضحا تماما من معاملة الالمان لليهود والبولنديين ، ان هتلر كان — عندئذ يقول الصدق .

ولنأخذ من الروس مثلا آخر ، فهم يعملون على تصنيع البلاد بسرعة كبيرة جدا وقد تثير مجرد هذه الحقيقة سؤالا وهو ما اذا كان الروس يتنافسون مع الغرب فى الانتاج الاقتصادى وما اذا كانوا يهدفون فقط الى رفع مستوى معيشتهم ، ويمكننا هنا أن نضع جميع الشكوك جانبا ، وذلك على ضوء البيانات العديدة التى يدلى بها الزعماء الروس بين آونة وأخرى من انهم يهدفون الى اللحاق بالغرب فى مستويات المعيشة وفى التسلح وفى القوة وليس هناك من شك فى أن الاهداف الروسية أهداف تنافسية .

وينطبق نفس الشىء على الولايات المتحدة ولو الى حدما . فاننا اليوم أكبر الدول قوة وأكثرها ثروة على وجه الارض . ولكننا لا نقنع بذلك ، فنحن نهتم اهتماما كبيرا بزعامتنا

لدول يجب علينا أن لا نسمح للكتلة الشيوعية أن تحول بيننا وبينها . اذن فأهدافنا أهداف تنافسية الى حد كبير .

وعلى الرغم من أنه ليس من السهل دائما أن يفطن المرء الى مثل هذه المعلومات الا انه من الهام لأية دولة فى أغلب الاحيان أن تعرف ما اذا كانت الدول الاخرى تنافسها أم لا ؟ لأنه اذا كانت هناك دولة ما ترمى الى تحقيق أهداف تنافسية فان على الدول الأخرى التى تتنافس هذه الدولة معها ألا تخطىء فتمنحها امتيازات العالم . ولا تفتأ حكومتنا تذكرنا بأنه خاصة ما لم تكن هذه الدول نفسها على استعداد لأن تعترف بتفوق تلك الدولة فى منطقة التنافس .

ولن تبرر الامتيازات وجود منافس بعينه ، ولكنها ستساعده فقط على الاقتراب من النصر . ولنضرب مثلا على ذلك بألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية . اذ كانت القوة هى الهدف الأكبر الذى تسعى المانيا الى تحقيقه ، وكان هذا هدفا تنافسيا . وكان ما ترمى المانيا اليه هو أن تصبح السيد الذى لا منازع له فى أوربا .

وسمحت انجلترا وفرنسا بأن تلتهم عدة صغيرة من جاراتها على أمل ضائع هو أن تقتنع ألمانيا بذلك وتصبح عضوا محترما فى مجموعة الدول الاوربية ، وكان هذا خطأ جسيما دفع

الانجليز والفرنسيون ثمنه غاليا . وبدا أن الانجليز على وجه الخصوص لن يفهموا أن المانيا كانت تنافسهم ، ولن تكف عن ذلك حتى تصبح أقوى من انجلترا ، أو حتى تجبر على ذلك بالقوة .

ولا يمكننا أن تتنبأ بطول المدة التى ستتسير على هـذا المنوال .. ولكننا نعلم أن ألمانيا منهمكة فى الوقت ذاته باعادة بناء اقتصادها ، وتعيش الآن فى سلام .

ومن المؤكد أن بعض الدول الاخرى غيرت طبيعة أهدافها عما كانت عليه فى الماضى .

فقد كانت الولايات المتحدة ــ خلال حقبة طويلة من تاريخها ــ تسعى الى تحقيق أهداف مطلقة فى ميدان القوة ، فـكانت تسعى الى كسب مزيد من القوة لتدعم استقلالها، ولكن أهدافها بدأت ــ عند نهاية القرن التاسع عشر ــ فى التأرجح بين الفئتين ففى فترة ما بين الحربين عاودت الولايات المتحدة العمــل على تحقيق أهداف مطلقة . ولكن منذ نهاية العقد الثالث من القرن العشرين اتضح أنها تسعى الى تحقيق أهداف تنافسية .

ويصدق عكس هذا تماما على السويد ، فان السويد التى كانت يوما ما خصما خطيرا قد امتنعت الآن عن التنافس فى ميدان

القوة وأصبحت أهدافها فى هذه المنطقة أهدافا مطلقة بقـدر ما تكون عليه الاهداف المتصلة بالقوة من قريب أو بعيد .

ويتعارض هذا التمييز الذى كنا نقيمه بين الاهـــداف التنافسية والاهداف غير التنافسية مع تقسيمنا لها الى أربـع فئات هى : القوة والثروة والثقافة والسلام .

فبينما يكون من الواقع أن القوة هى على الدوام هـدفا تنافسيا الى حد ما ، فاننا يمكننا التمييز بين نوع الهـدف الذى يرمى الى تحقيق قدر كاف من القوة يكفل المحافظة عـــلى الاستقلال القومى ، وبين الهدف الذى يرمى الى تحقيق قوة كبرى أو السيطرة على العالم .

بينما يعتبر السلام من ناحية أخرى هدفا مطلقـــا عـلى الدوام .

أما الثروة والنهوض بالنواحى الاقتصادية فهذان هـدفان ترمى الدولة الى تحقيقهما لأغراض تنافسية أو من أجل تحقيقهما فى حد ذاتهما . ويجب أن نضع فى اعتبارنا التمييز بين الاهداف التنافسية وغير التنافسية . ونحن نمضى الى عرض بحث مفصل عن الانواع المختلفة للاهداف القومية .

من القـــوة الى الســـلام ...

قد يقال فى بعض الاحيان ان رغبة الاستحواذ عـلى القوة

نزعة متأصلة فى الطبيعة البشرية .. وان هذا الدافع أو هـذه الرغبة يدفع الدول الى حبك المؤامرات أو الى قتال كل منهـا الأخرى . الا أن هذا زعم قد يعتريه الشك .

فلو كان مثل هذا الدافع جزءا من الطبيعة البشرية ، لثبت وجوده عند جميع الناس وفى كل العصور دون استثناء . فهـذا هو الحال فى جميع الدوافع الفطرية الاخرى مثل الجنس والجوع . الا أن معظم النـاس فى تاريخ البشرية لم يظهروا هذا الدافع البشرى الشامل كما هو مزعوم ، بل ان كثيرين منهم لا يظهرون اليوم ، أما فى نطاق الدولة ، فالقوة هدف بارز عنـد بعض الدول ولكنها ليست هدف الدول جميعها ، ويختلف مدى اهتمام كل دولة بهذا الهدف عن الدول الاخرى اختلافا كبيرا .

ومع ذلك فكل الدول تسعى الى أن تسود داخل أراضيها وأن تتحرر من كل سيطرة أجنبية . والى هذا الحد يمكننا أن نقول ان جميع الدول تسعى الى الاحتفاظ بحد أدنى من القـوة على الاقل ، اذا أرادت أن تبقى بوصفها وحدات سياسية ، لانه اذ لم تسـيطر الدولة ولو حتى على شئونها الداخلية فان ماهيتها كدولة لن تكون سوى سراب .

وزيادة على ذلك فان استحواذ دولة ما لقـوة أكبر من الدول الاخرى سيكون أمرا مفيدا للغاية فى تحقيـق بعض الاغراض

المرجوة الأخرى، مثل الثروة ، أو المستعمرات ، أو السلام والامن والقوة - بعبارة أخرى - وسيلة هامة لتحقيق أهداف أخرى • فالواقع أن قيمة القوة ترجع أولا وقبل كل شىء الى هذا السبب • ومن النادر جدا أن تسعى الدولة الى تحقيق القوة بوصفها غاية فى حد ذاتها •

ويجب أن نلاحظ أخيرا أنه سواء أرادت الدول أم لم ترد فانها تحتل مكانا فى النظام الدولى للقوة، أى انها تملك قدرا معينا من القوة يتناسب مع ما تمكن الدول الاخرى • وهذه الخاصية التى تمتاز بها الدول - كما سترى فى الفصول التالية - تعتبر هامة للغاية فى تفسير قدر كبير من تصرفات هذه الدول فى المجال الدولى •

الا أن اهتمامنا هنا يتركز حول القوة بوصفها هدفا واعيا أو هدفا ثانويا • وبرغم ما يكون لها من أهمية وخاصة بالنسبة للدول الكبرى التى تشغل الجزء الاعظم من انتباهنا فهى بدون شك الهدف الوحيد الذى ترمى الى تحقيقه هذه الدول •

الثروة بوصفها هدفا قوميا

الثروة هدف آخر تسعى الى تحقيقه كل دولة تقريبا • فكل دولة تسعى الى امتلاك القدر الكافى من الاراضى والموارد والانتاج لتوفر - على الأقل - العيش لسكانها، وأن تكفل فائضا كافيا منها لتتيح للفئة الحاكمة المستوى الذى تعودته من الترف والبذخ •

والواقع أن حياة الامة تتطلب حدا أدنى معينا من الثروة القومية •

وسواء تعدت الدول هذا الحد الادنى أم لم تحققه بعد ، فان معظمها - ومن بينها الولايات المتحدة - تسعى الى تحقيق المزيد من الثروة بوصفها هدفا قوميا كبيرا •

وقد يظن المرء أن الدول الفقيرة المعدمة هى التى تكون أكثر من غيرها اهتماما بزيادة ثروتها، بينما تكون الدولة الغنية أقل اهتماما بتكديس الثروات ، غير أن هذا فى الحقيقة ليس واقع الامر • فقد يرجع فقر الدول المعدمة - الى حد ما الى أن الثروة لم تكن ضمن أهدافها القومية الكبرى• ويجب علينا هنا بالطبع أن نميز بين الجشع الشخصى الذى يتملك أحد الحكام الرجعيين فيسعى الى جمع ثروته الشخصية ، وبين الرغبة الشاملة التى تعم الدولة بأكملها لتحقيق مستوى مرتفعا من المعيشة • والسعى الى تحقيق الثروة القومية فى صورة النهوض بمستوى المعيشة يعد ظاهرة حديثة ، وتتاجا للثورة الصناعية التى جعلت من تحقيق مستوى أفضل من المعيشة امكانية حقيقية بدلا من أن تكون حلما خياليا • والدول الفقيرة دول غير صناعية يقبل سكانها فقرهم على أنه أمر طبيعى ، ولم يفطن حكامها الى امكان النهوض بمستوى المعيشة فى البلاد الا منذ عهد قريب • وحتى ذلك الحين لم تكن هذه الدول تهتم بالبحث عن الثروة ، وذلك أحد الاسباب التى تجعلها اليوم تعانى الفقر المدقع •

غير أن أغنى الدول وأكثرها ثروة على وجه الارض هي التى تبدى اهتماما شاذا بالحصول على الثروة ، وان الدول التى تليهـــا مباشرة في هذا الميدان تستنفد كل جهودها وتتملكها الغيرة والحسد لتلحق بها . وهكذا نجد أنفسنا أمام هذه الحقيقة التى تتناقض مع نفسها وهى أنأكثر الدول فقرا أكثرهاقناعة ورضا بأنتبقىفقيرة بينما تبذل الدول الغنية كل ما فى طاقتها لتصبح أكثر ثروة وغنى .

وقد يكون السعى وراء الثروة غرضا تنافسيا أو مطلقا . ويبدو من الواضح تماما أن معظم الامريكيين لا يهتمون بتحقيق المزيد من الراحة والرضا .

بلهميهتمون أيضابأنيبلغوا أسمى مكانة ، ونحن نجد سواء فى الخارج أم فى الداخل ، فى السر أم فى العلن - نجد ميلا الى اعتبار الثروة دليلا على المكانة أو الحالة . ولا يفتـــأ الامريكيون يذكرون أنفسهم وبقية العالم بأنهم يتمتعون بأرفع مستوى للمعيشة في العالم . وتعتبر هذه الحقيقة مصدرا عظيما للعزة القوميـــة . كما يهنىء الروس أنفسهم أيضا على السرعة التى تزداد بها ثروتهم القومية ، مدعين أن هذا يبرهن على امتياز الشيوعية .

وقد يبدو أن معظم الدول الغنية تنظر الى ارتفاع مســـتوى معيشتها على أنه دليل على تفوقها بوجه عام على جاراتها من الدول الاقل ثراء ، غـــير أنه من الممكن أن نفرق بين الدول التى تسعى

الى الحصول على الثروة حتى تبرهن على تفوقها ـ مثل روسيا والولايات المتحدة ـ وبين الدول التى يبدو انها تقدر ارتفاع مستوى المعيشة فى حد ذاته، وتهنىء نفسها على امتيازاتها كما لو كانت هذه فكرة جاءت مؤخرا ـ مثـــل الدول الاسكندنافية ، ومع ذلك فنحن نجد أنه من الصعب فى بعض الحالات أن نقرر ما اذا كانت الدولة تسعى الى تحقيـــق الثروة من أجل أغراض تنافســـية أو لتحقيقها فى حد ذاتها •

ويزيد من صعوبة تقريرنا ما اذا كانت الدولة تسعى الى تحقيق الثروة من أجل أغراض تنافسية أو لتحقيقها فى حد ذاتهـــا أن الثروة والقوة مرتبطتان ببعضهما أوثق ارتبـــاط • ويمـــكن أن تحول الثروة وهى فى صورة انتاج قومى متزايد الى سلع عسكرية أو مدنية • ويتضح فى الحال الاولى أن الثروة تستخدم لزيادة قوة الدولة لا لتحسين مستويات المعيشة وحتى فى حال السلع المدنيـة فقد تكون القوة ذات اعتبار هام • فمثلا قد توجه الاموال فى تنمية الصناعة الثقيلة التى يمكن أن تستخدم فى انتاج الجرارات اليوم ، والدبابات فى اليوم التالى أو طائرات الركاب اليوم وقاذفات القنابل فى اليوم التالى وهكذا • وكما سنرى فيما بعد فقد تصبح حتى تلك الانواع البسيطة من السلع المدنية مصدرا لقوة الدولة اذا استخدمت بمهارة فى مجال التجارة الدولية •

ومن المستحيل فى أغلب الاحيان أن نقرر - من سلوك دولة ما - ما اذا كان هدفها هو الثروة أو القوة أو كلاهما فحسب ولكن القوة أيضا يمكن أن تكون مصدرا هاما للثروة • ومع ذلك فالثروة والقوة - مثل الافكار - منفصلتان عن بعضهما تماما • ينشأ الخلط بينهما من أن الدول تسعى الى تحقيق هذين الهدفين معا فى أغلب الاحيان ، ولكنه يجب أن نوضح أنهما أيضا قد يتعارضان معا • فلا بد أن تختار الدولة بين البنادق أو الزبد ، واختيارها هنا سيلقى ضوءا كبيرا على أهدافها القومية• فالولايات المتحدة غنية للغاية حتى انها لم تجد نفسها يوما ما مجبرة على أن تختار بينهما، غير أننا يمكن أن نجرؤ على افتراض أنها لو أجبرت على الاختيار بين زعامة العالم وبين ارتفاع مستوى المعيشة فى أمريكا لاختارت رفع مستوى معيشتها • فقد اختارت انجلترا نفس الاختيار وتخلت عن الكثير من مسئولياتها الدولية فى السنوات الاخيرة لما تكلفه من نفقات باهظة يتكبدها دافع الضرائب البريطانى • بينما اختارت ألمانيا النازية وروسيا الشيوعية أن تزيدا من قوتهما حتى ولو كان ذلك على حساب مستوى معيشتهما •

الاهداف الثقافية

وقد تهدف الدولة - الى جانب القوة والثروة - الى تحقيق أهداف ثقافية ، فالواقع أن المحافظة على الثقافة القومية هدف لكل

دولة • فان المشاعر العميقة تنمو - كما رأينا - حول طريقة الحياة فى الدولة ، فمعظم دول العالم نعتز اعتزازا عميقا بلغاتها الخاصة ، وبطرفهــــا فى الملبس والمأكل والمسكن ، وبنظمها السياســـية والاقتصادية والدينية، ويشاركها فى هذا الاعتزاز هؤلاء الناس الذين يحتلون أكبر المناصب الحكومية - لا سيما فى العصـــور الحديثة حيث يكون حكام الدول من نفس جنســـية المحكومين - وهكذا تترجم هذه المشاعر فى السياسة الحكوميـــة • والواقع أن الحكومات القومية غالبا ما تشجع مثل هذه المشاعر الوطنية على أنها وسيلة لتوحيد الامة ولتدعيم قوة الحكومة وزيادة فعاليتها فى معاملاتها مع الدول الاخرى • اذ أن الدول اليوم - كما أكدنا فى الفصـــل السابق - ليست بوحدات سياسية فحسب ، ولكنها وحدات ثقافيـــة أيضا • وهكذا يتضح أن المحافظة على الثقافة القومية هدف قومى هـــام •

وتسعى الدول الى محافظتها على ثقافاتها بطرق عديدة مختلفة• ومن أهم الاسباب التى تدفع الناس الى التمتع بالاستقلال القومى أو الى معارضة الغزو الاجنبى هو أن الاستقلال يتيح تأكيد الثقافة القومية بينما قد يهدد الغزو الاجنبى بغمر هذه الثقافة أو بتغييرها تغييرا تاما • فمن المؤكد أنه من الخطأ أن نقرر أن الجنود الامريكيين فى الحرب العالمية الثانية كانوا يقاتلون من أجل المحافظة عـــلى

« الآيس كريم » أو « قرية التفاح » ، ولكنه من الخطأ أيضا أن نفترض أنهم كانوا يقاتلون من أجل تحقيق القوة والثروة لبلادهم فقط . فان انتصار الفاشية كان معناه تعريض طريقة الحياة الامريكية لتهديد خطير . وهذا ما كان يدركه معظم الامريكيين .

وتعتبر القيود التى تفرض على الهجرة وسيلة أخرى تسعى الدول عن طريقها الى المحافظة على ثقافاتها القومية ، فلقد كان من الممكن لدول مثل كندا واستراليا أن تزيد من ثروتها وقوتها الى حد كبير لو أنها فتحت أبوابها على مصاريعها أمام كل من يرغب فى ارتيادها . فان استراليا على وجه الخصوص تعتبر فى أشد الحاجة الى عدد أكبر من السكان ، يمكن لكل من الهند واليابان - اللتان تعانيان من كثرة السكان أن تبعث به بكل ارتياح وسرور، غير أن استراليا تفضل قصر الهجرة اليها على الاوروبيين ولا سيما الاوروبيين من سكان الشمال الغربى من أوروبا ، ذلك لانها تخشى أن يقضى سيل المهاجرين الأسيويين على ثقافتها الاوربية أو أن يغيرها تغييرا شاملا ، وقد وضعت قوانين الهجرة فى أمريكا بطريقة خاصة ، اذ أنه كلما اختلفت ثقافة دولة ما عن الولايات المتحدة كلما قلت فرصة السماح لابنائها بالهجرة الى أمريكا . ومن المحتمل أن تعلل معظم الدول من قدر طاقتها على استيعاب السكان ذوى الثقافات المختلفة ، وتكاد تغض نظرها تماما عن النصيب الثقافى الذى يمكن

أن تضيفه هؤلاء المهاجرون الى ثقافتها ، وذلك على زعم أنهم لا يختلفون عنها كثيرا • وعلى كل فان سياسة فرض القيود علـــى الهجرة ـ سواء أكانت خيرا أم شرا ـ تعبر عن رغبة كل دولة فى المحافظة على ثقافتها القومية •

وتنشأ معظم المقاومة التى تقيمها الدول المتخلفة أمام التغـــير التكنولوجى أو ادخال الأساليب الفنية من الخوف من أن تقضى هذه الاساليب الحديثة على الثقافة القديمة كما يحدث فى واقع الامر • وقد تكون هذه المقاومة مخربة للغاية فيمـا يتعلق بالثروة والقوة ، ولكن اذا كانت الاهداف الثقافية تحتل المركز الاول من الاهمية ، فمن يستطيع أن يقول ان هذه المقاومة خاطئة ؟ فالواقع أن كثيرا من زعماء البلدان المتخلفة يختلفون ازاء مسألة تعميم الاســـاليب الحديثة بوجه عام وازاء مسألة المعونة الاجنبية بوجه خاص فهم يريدون من ناحية أن ينهضوا بمستوى المعيشة وأن يمتلكوا القوة المتزايدة • تلك النواحى التى تنشأ عن ادخال الاساليب الحديثة ، لكنهم لا يريدون من ناحية أخرى ـ أن يغيروا ثقافتهم المحلية بالطرق التى يقتضيها ادخال هذه الاساليب الحديثة • واذا ما واجهوا تضاربا بين الاهداف الثقافية والاهداف الاخرى ، اتجهوا الى التخلص من هذا التضارب وتحقيق هاتين الفئتين من الاهداف معا وفى وقت واحـــد •

ويمكننا أن نضرب مثلا آخر على السعى لتحقيق الاهـــداف الثقافية ولو على حساب الاهداف الاقتصادية وذلك فى صميم الهند على أن تحل اللغة الهندية محل اللغة الانجليزية فى الدواوين الحكومية ، وهذه عملية ضخمة ستتكلف أموالا طائلة ، وقد يتسبب عنها تدهور مؤقت فى دقة المكاتبات بين الموظفين الهنود ، اذ أن جميع الهنود المتعلمين الآن يتكلمون الانجليزية ، كما أن السجلات الحالية والمراسلات مكتوبة كلها باللغة الانجليزية ومثل هـــذا التغيير يعنى خسارة اقتصادية ، ولكن هذه الخسارة قد تعوض فى صورة دعـــم للقوة ، اذ أنها ستساعد على زيادة وعى الهنود المتعلمين بوحدتهـــم القومية ، ومن هنا تدعممشاعرهم الوطنية. وفىكل حالة نجد أن الهدف الباعث على انتهاج هذه السياسة - ليس هدفا اقتصـاديا أو سياسيا - وانما هو هدف ثقافى .

ويمكننا أن نقسم الاهداف الثقافية كما سبق أن قسمنا الاهداف الاخرى - الى أهداف تنافسية أو أهداف مطلقة . وعلينا هنـــا أن نفرق بين الدول التى تحاول أن تحافظ على ثقافتها الخاصة فقـــط داخل حدودها، وبينالدولالتى تحاولأن تفرضثقافتها علىغيرها من الدول . وفى هذه الحال أيضـــا يمكننا أن نقول عن الولايات المتحدة انهاتسعى الىتحقيق أهدافثقافية تنافسية، لأننامقتنعون لا بأن ثقافتنا تسمو على الثقافات الاخرى فحسب - فكثير من الدول

تدين بمثل هذا الاعتقاد ـ ولكن تراودنا رغبة جارفة فى أن ننشر النظم السياسية الامريكية والقواعد الاقتصادية ، والمهارة الفنيــة والثقافة والمادية فى جميع أنحاء العالم ونحن فى هذا نشبه الدول الاستعمارية الكبرى فى غرب أوروبا ، فان معظم هذه الدول مقتنعة بأن هناك رسالة ملقاة على عاتقها وهى نشر المدنية بين الاهالى، وكذلك الاثراء من ورائهم . ومن الواضح اليوم أن الاتحاد الســـوفيتى يهدف الى تحقيق أهداف ثقافية تنافسية . ويؤمن زعماء روسيا بأن لديهم أيضا رسالة ، فهم مصممون على نشر الشيوعية بقدر تصميمنا نحن على نشر طريقة الحياد الامريكية . والصراع الدائر الآن بين الولايات المتحدة وروسيا هو فى جوهره صراع من أجل القـــوة وتنافس بين نظامين اقتصاديين بديلين ، كما أنه فى الوقت ذاته صراع بين ثقافتين متنافستين . ومن الخطأ التغاضى عن أهمية الدور الذى تلعبه الاهداف الثقافية فى تقرير تصرفات الدول الحديثة .

الســـلام بوصـــفه هدفا قوميـــا

السلام هو أحد الاهداف القومية الهامة التى تحدثنا عنها ، بيد أن السلام كلمة عامة كثر استخدامها حتى انها كادت أن تفقد مدلولها . ونحن نعنى بالسلام هنا انعدام الحرب ، وبالتأكيد انعدام الحروب الطويلة الموقرة . ومن المؤكد أن هـــذا ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن نعطيه للسلام ، ولكنه أفضل تعريف يخدم

أغراضنا الحالية ، لان الدول عندما تحلم بالسلام لا تفكر فى رفع مستوى المعيشة أو تأمل فى زيادة التفاهم الدولى أو فى توطيد مشاعر الاخوة بين البشر . فان ما تريده بل وتطمع فى تحقيقه الآن هو تجنب قيام حرب عالمية أخرى .

ولقد أصبح السلام - فى القرن العشرين - هدفا قوميا هاما أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحرب العالمية الاولى - وهى أول صراع هام وقع بين الدول المتقدمة فى الصناعة بمثابة صدمة للعالم ، فساد شعور حينذاك بأن قيام حرب أخرى من هذا النوع كفيل بالقضاء على البشرية .

ونحن نعلم الآن أن الحرب الأولى لم تكن سوى مجرد بداية . فبالرغم من أن البشرية قد مرت بحرب عالمية ثانية ، وربما كتب لها أن تمر بحرب ثالثة ، الا أن اختراع الاسلحة الحديثة مثل القنبلة الهيدروجينية والصواريخ الموجهة والاسلحة المزودة بالبكتريا أو الجراثيم - كل هذا جعل قيام حرب جديدة أمرا فظيعا لايجرؤ علىالخوض فيه الا رجل مجنون. والواقع أن الذى بدأ الحرب العالمية الثانية كان رجلا معتوها بلاشك . اذ أن طبيعة الحرب قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وازدادت بذلك أهمية السلام بوصفه هدفا قوميا .

وقد يقال ـــ فى ظل الظروف الحديثة ـــ ان السلام ـــ أو على الاقل عدم قيام حروب عالمية (وهنا قد تتجاوز عن الحروب المحلية الصغيرة) ـ قد أصبح هدفا فى حد ذاته ، يسعى الناس الى تحقيقه بغض النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الاخرى . وقد يقال انه لايوجد شيء أسوأ من ذلك التدمير الشامل الذى قد ينشأ لو تورطت الولايات المتحدة والاتحاد الســـوفيتى والدول الاخرى التى تملك أحدث الاسلحة فى حرب حتى النهاية . ومع أن الكثيرين يعتنقون هذا الرأى ، الا أنه لا ينال موافقة جماعية . والزمن وحده هو الخليق بأن يثبت ما اذا كان هذا الرأى سيتلاشى ، وتواصل حكومات الدول الكبرى أن تنظر الى الحرب بصفتهـــا امكانية حقيقية ، وهى تستعد لخوضها وكأنها جزء هام من سياساتها وحتى الآن لايعتبر السلام الا واحدا من أهداف عديدة ، ورغما عن أهميته الا أنه ليس بالضرورة أسمى هذه الاهداف .

وقد يكون السلام فى بعض الاحيان مكملا للاهداف الاخرى ، وأحيانا يكون سابقة ضرورية من أجل تحقيق أهـــداف أخرى . وعندما تكون دولة ما فى حالة تدهور فان السلام ضرورى لها بوجه عام اذا أرادت أن تحتفظ بما تملكه من قوة وثروة . فقـــد أبدت انجلترا وفرنسا اهتمـــاما كبيرا بالمحـــافظة عـــلى الســـلام العالمى فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية حتى انهما

رفضنا أن نفهما المعنى الواضح الذى كانت تنطوى عليه معظم تصرفات ألمانيا • اذ ان قادة انجلترا وفرنسا فى ذلك الحين كانوا يفهمون تماما أن قيام حرب عالمية سوف يعنى بداية النهاية بالنسبة لبلديهما بصفتهما دولتين كبيرتين • وقد كانوا على صواب فى ذلك الى حد كبير • وفى النهاية لم تترك ألمانيا لهما اختيارا سوى الحرب ، غير انه عند انتهاء الحرب كانت كلا الدولتين قد قاست ويلات لا يمكن تعويضها من حيث القوة والثروة •

ومن ناحية أخرى يمكننا أن نجد أمثلة تبرهن لنا على أن السلام يكون أحيانا عقبة فى سبيل تحقيق أهداف أخرى • فهذا هو شأنه بوجه خاص مع الدول القوية التى تريد احداث تغيرات فى الوضع الراهن لا ترغب الدول الاخرى فى احداثها سلميا • وعلى أى حال فان الحروب تشن لان أحد الاطراف على الاقل يعتقد أن هناك فائدة تعود عليه من النصر • أى أن الحرب وسيلة عامة تحاول بها الدول تحقيق أهداف أخرى مثل الثروة أو القوة أوالمحافظة علىالتراث الثقافى• وفى الحالات التى لاتكونالحرب فيها مدمرة للغاية ، أو التى يكون النصر فيها مؤكدا ، ويكون من المحتمل أن يصيب الدمار العدو وحده ، فقد تزن الدولة الفوائد التى تعود عليها من السلام وتقابلها بالاهداف الاخرى • فالهند

ـ مثلا ـ وجدت من منفعتها أن تستولى على كشمير بالقوة • كمـــا وجد الشيوعيون فى الملايو والهند الصينية من منفعتهم أن يحاربوا الاوربيين الذين يحكمونهم • كما أن الدول الاستعمارية ـ وهي فى ذروتها ـــ لم تفكر فى شن حروب محلية لتوسع من حدود مستعمراتها أولتخمد الثورات فيها ، وحتى اليوم تتسم كثير من الحروب فى العالم بأنها ذات طابع محلى ضيق ولا تنطوى عـــلى قدر خطير من الدمار بحيث تثبط من همـــــة هؤلاء الناس الذين يبـــدءون فى خوضها •

•

وقصارى القول فان هدف السلام الذى تعتبره جميع الدول تقريبا أمرا مرغوبا فيه وقد يتساوى فى قدره مع بعض الاهداف الاخرى •• يعد بمثابة تقييد للسعى لتحقيق الاهداف الاخرى • وهناك كثير من الاهداف التى يسعى الناس الى تحقيقها اذا أتيح لهم ذلك سلميا ، ولكنهم سرعان ما يتخلون عن هذه الاهـــداف اذا اقتضى ذلك قيام الحرب • وليس هناك سوى قليل من الاهداف التى تعد جديرة بشن حرب عالمية كبرى • فان انجلترا مثلا كانت تحبذ جدا أن تحتفظ بامبراطوريتها الاستعمارية ، ولكن لا على حســـاب قيامها بشن حرب دائمة لاخماد الثورات فى مستعمراتها ولذلك فهى قد تخلت عن الهند وبدأت فى تصفية ممتلكاتها فى افريقية أيضا • وكذلك كانت الولايات المتحدة تحبذ جدا أن ترى أوروبا الشرقية

متحررة من الحكم الشيوعى ، ولكنها لا تريد أن تخاطر بالحرب مع روسيا لتحقيق ذلك .

ولقد رفع الخوف من قيام حرب حديثة الى حد كبير الثمن الذى ترغب الدول أن تدفعه من أجل استتباب السلام وليس هناك دولة واحدة تسعى الى تحقيق السلام بأى ثمن كان .

فان دولة عظمى مثل الولايات المتحدة ستحارب حتما اذا ما تحدت دولة أخرى حدود قوتها وثروتها الخارجية كما ستحارب أيةدولةصغرى لتحافظ علىاستقلالها القومى. ومن المؤكد أن الهولنديين لميظنوا قط أن فىمقدورهم أن يهزموا قوات ألمانيا النازية ، كما كانت هذه هى الحال مع المجريين الذين ثاروا فى عام ١٩٥٦ ثورة عارمة ، اذ أنه لم يدر بخلدهم أنه يمكنهم هزيمةالروس ومع ذلك فقد حاربوا . بل قد يهب شعب مهزوم لا يتمتع باستقلاله القومى فى ثورة عاتية اذا تعرض الحد الادنى من أهدافه الخاصة بالمعيشة والثقافة للخطر .

فالسلام اذن هدف هام ترمى الى تحقيقه الدول الحديثة ، ولكنه ليس الهدف الذى يحظى دائما بمرتبة الافضلية أو السبق .

انماط الاهداف القوميـــــة

لا يكفى أن نقرر ما اذا كانت أهداف دولة ما تنافسية أم مطلقة،

وما اذا كانت تسعى الى تحقيق خليط منها جميعا فى حالة خاصة ويجب أن نجيب عن الأسئلة الأخرى اذا أردنا أن نفهم الأهداف التى تحرك التصرفات الدولية ٠

كما نريد هنا بوجه خاص أن نعرف من الذى يملك هذا الهدف ؟

وهل هذا الهدف القومى المزعوم هدف الدولة كلها حقا ، أم أنه ليس سوى هدف جماعة خاصة داخل نطاق الدولة ؟

أو بعبارة أخرى هل الاهداف الدولية التى ترمى الى تحقيقها الجماعات المختلفة داخل نطاق الدولة متشابهة، أو انها تختلف بعضها عن البعض الآخر ؟

وهل الاهداف الدولية موحدة أم انها متباينة مختلفة ؟ ٠٠

وبعد ذلك نريد أن نعرف من الذى يتوقع أن ينتفع من تحقيق الهدف ، هل هى الدولة نفسها ؟ أم مجموعة بأكملها من الدول؟ أو الانسانية جمعاء ؟

وهل الهدف أمر يخص الدولة وحدها أم انه هدف انسانى عام ؟ ٠

وهناك سؤال هام آخر يتعلق بالوقت الذى ينتظر تحقيق الهدف فيه ٠

هل هو هدف، عاجل أم انه هدف طويل الأجل ؟ •

وعندئذ نجد سؤالا آخريتعلق بمدى تحديد الهدف تحديدا واضحا : هل هو هدف خاص أم أنه هدف عام وغامض بعض الشيء ؟

وزيادة على ذلك سنجد أنفسنا فى حاجة الى أن ندرك امكان وجود تباين بين الاهداف التى تدعى الدولة انها تسعى الى تحقيقها فعــــلا •

وهل الهدف الذى ندرسه الآن هدف حقيقى أم يزعم أنه هدف لتحقيق أغراض تتصل بالعلاقات العامة ؟

ونريد أيضا أن نعرف ما اذا كانت الحال المرجوة مستقبلا استمرارا للحال السائدة الراهنة أو ما اذا كانت هذه الحال المرجوة غير موجودة الآن ، ولابد من تحقيقها فعلا، وهذا يعنى : هل ينطوى تحقيق الهدف على المحافظة على الوضع الراهن؟ أم أن ذلك يتطلب اجراء تغير ما ؟

ولنحاول الآن أن ندرس جميع هذه الأسئلة كلا على حدة •

الاهداف الموحدة والاهداف المتباينة

وكثيرا مايقول بعض الناس: ان نزع السلاح أو اتاحة حرية أكبر أمام التجارة أو استعادة مستعمرة بعد فقدانها أو تحقيق وضع من الاوضاع مستقبلا • كل هذه أهداف قومية يعضدها جميــــع

المواطنين • الا أن مثل هذا الادعاء لا يوجد له دائما مبررات كافية• فالواقع ان غالبية المواطنين العاديين فى دولة ما لا يبدون فى الغالب اهتماما كبيرا بالشئون الدولية ما لم تكن هناك على الاقل أزمة ما يرون أنه من المحتمل أن تؤثر على مصالحهم المباشرة ففى خلال الازمات تبدى الجماهير اهتماما بمسائل أخرى تماما • وهذا مايحدث حتى فى الديموقراطيات حيث تدعى الجماهير دائما الى التعبير عن آرائها ، اذ يركن الجمهور الى الخمول معتمدا بذلك على الخبراء ليكونوا له الآراء بشأن المسائل الدولية ، ثم بعد ذلك يحتضن الجمهور هذه الآراء • وتتميز الولايات المتحدة بهذا النوع من السلوك أكثر مما تتميز به بعض الديموقراطيات الاوروبية غير أنه من الصعب أن نجد دولة تتشكل فيها الاهداف الدولية عن طريق جميع مواطنيها • ففى كل دولة ـ سواء أكانت ديمقراطية أم جماعية ـ نجد تنظيما خاصا للسلطة ترأسه جماعة من الناس صغيرة العدد نسبيا وهى التى تقوم باتخاذ القرارات الهامة ، ولو ان ما يحدث فى الديموقراطيات (بل فى البلدان التى تتبع نظما جماعية فى الحكم على نطاق محدود) هو أنه لابد أن يوافق الجمهور أخيرا على هذه القرارات أو عليه ـ على الاقل ـ أن يقبلها •

ولا يجدر بنا ان نتوقع ـ فى الظروف المختلفة ـ أن تتفق الاهداف الدولية لدولة ما مع غالبية مصالح جميع المواطنين فيها•

فالواقع انه قد لا يهدف جميع المواطنين الى تحقيق نفس المصالح، حتى يكاد يكون من المستحيل أن يناسبهم جميعا هدف واحد . ويبدو منطقيا أن نقول ان أهداف الدولة هى دائما الأهداف التى يرمى الى تحقيقها هؤلاء الناس الذين يملكون معظم السلطة فى حكومة الدولة . وسواء أكانت أهداف هذه الجماعة هى نفسها أهداف جميع المواطنين أيضا او أهداف غالبية المواطنين فيها فان ذلك أمر يختلف من دولة لاخرى ومن وقت لآخر

الا انه توجد بعض الخلافات الهامة فى مدى اشتراك الجمهور بأكمله فى الموافقة على أهداف الدولة واعتناقه لهذه الأهداف على أنها تخصه . وفى تلك الفترة من التاريخ التى كانت تحكم فيها الاسرات المالكة حيث كانت الدولة تتألف فى واقع الامر من الملك والنبلاء كانت «الاهداف القومية» هى الاهداف التى يرمى الى تحقيقها الملك والنبلاء . ولم يكن الرعايا العاديون يشاركون الملوك أمانيهم ، بل لم يكن لهم أى دور هام فى تحقيق هذه الامانى . وخاصة فى مجال الشئون الدولية اذ كانت الجماهير لا تحظى بأى اهتمام . وفى مقدورنا ان نقول أنه لم تكن للجماهير أية أهداف دولية .

أما فى الفترة البورجوازية التى أعقبت ذلك ، فان الأهداف القومية كانت أصلا هى الأهداف التى تسعى الى تحقيقها الطبقة

البورجوازية القوية ومع ان تحقيق بعض هذه الأهداف كان أمرا هاما بالنسبة لجماعة كبيرة من الناس ، الا أن عددا قليلا منهم ساهم فى وضع معظم الاهداف القومية أو اشترك فى تنفيذ السياسة المرسومة لتحقيقها .

ولا يمكننا أن نتحدث عن الأهداف القومية حقا الا فى الفترة الحديثة ، وحتى فى هذه الفترة نجد أن غالبية المواطنين لايشكلون الأهداف القومية بل يعتنقونها ويؤيدونها بدرجات متفاوتة . الا أنه اذا ما اعتنق الجمهور مثل هذه الأهداف فانه قد يشعر بها فى اعتقاد راسخ ويؤيدها فى حماسة كبيرة ــ والى الحد الذى يصدق معه قولنا هذا يمكننا ان نتحدث عن هذه الأهداف على أنها أهداف قومية حقيقية .

فقد تنشق الدولة على نفسها أحيانا فيما يتعلق بالأهداف الدولية التى تنشدها ومن النادر أن نجد اجماعا قوميا شاملا على تحقيق هدف واحد بعينه ، ولكننا قد نجد درجة عالية من هذا الاجماع . والواقع ان درجة هذا الاجماع تعتبر عاملا هاما فى تقرير النجاح الذى ستحرزه الدولة فى تحقيق اهدافها ، وكما سنرى فى فصل آخر فان مدى اجماع الدولة أو حدتها يؤثر على قوة الدولة . وقد يتراوح مدى اجماع الجماهير على الاهداف القومية بين التأييد القوى الواضح الذى تتميز به الدول

التى تدار شئون الحكم فيها بكفاية بالغة ـ كما هو الشأن فى الدكتاتورية الجماعية مثل الاتحاد السوفيتى ـ وبين الخلافات الصريحة الشاسعة التى تقسم الفرنسين على أنفسهم عندما تريد فرنسا ان تتخذ قرارا ما بشأن مسألة دولية . وبطبيعة الحال ليس من السهل دائما ان نحكم على مدى اجماع الجماهير على الاهداف القومية فى دولة ما توجد فيها حكومة الحزب الواحد وتوجد فيها النظم الدقيقة للرقابة مما يحول دون حرية التعبير عن الخلاف مع السياسة الحكومية . ففى روسيا مثلا لم يقم الجمهور بتاتا باظهار اى انحراف صريح عن السياسة الرسمية لعدة سنوات بيد أن ذلك الاهتمام الودى بأمريكا الذى يلاقيه الامريكيون الذين يزورون روسيا خلال سنوات الحرب الباردة يدل على أنه يوجد فى روسيا آراء لاتتفق مع موقف الرسميين السوفييت ازاء الولايات المتحدة . ومع ذلك فان حكومة الحزب الواحد والرقابة الشديدة لا تخنق المعارضة فحسب ولكنها تساعد أيضا على خلق التأييد . وسيكون من الخطأ أن نفترض أنه بعد مرور كل هذه السنوات العديدة على تلقين الغالبية العظمى من الشعب السوفيتى هذه المبادىء ، نجده لم يؤيد الاهداف الهامة التى ترمى الحكومة السوفيتية الى

تحقيقها فى ميدان السياسة الخارجية ويضع التأييد الشعبى حدودا للاهداف الدولية الممكنة ، غير أن هذه الحدود اوسع نطاقا فى الدكتاتوريات عنها فى الديموقراطيات الغربية •

ففى دولة ــ بل وفى دولة مثل روسيا على وجه الخصوص ــ نجد أن الخلاف الذى ينشب بين الزعماء انفسهم بشأن الاهداف أكثر أهمية من الخلاف الذى قد ينشب بين الزعماء والجماهير بوجه عام • ولا شك أنه توجد خلافات قائمة بين كبار الرسميين فى الحكومة السوفيتية • بل هناك صراع بين هذه الجماعة التى تريد رفع مستوى المعيشة القائم حاليا فى روسيا على حساب الاستثمارات الرأسمالية وتلك التى تريد ان تحافظ على المستوى الرفيع للاستثمارات الرأسمالية بقصد زيادة القوة ــ هذا الصراع ساعد على احداث تغييرات هامة فى المناصب البارزة لزعماء الحكومة الروسية فى عام ١٩٥٧ • الا أن معظم هذه الخلافات بين الزعماء غالبا ما تصفى داخل نطاق الاجهزة الرئيسية فى الحكومة واذا ما وضعت الاهداف والسياسات القومية نجد أنها تنال تأييدا تاما من الجميع بما فى ذلك هؤلاء الرسميين الذين الذين كانوا أصلا مؤيدين لافكار أخرى • أما احتمال وجود خلافات بشأن الاهداف ، ولو بين كبار الزعماء فقط فذلك أمر محدود جدا فى الدكتاتوريات الجماعية •

وعلى النقيض من هذا تماما نجده فى دولة مثل فرنسا ، حيث يعرب الجمهور عن أية آراء يعتنقها فى صراحـــة وقوة ، وتكاد توجد هناك قاعدة هى أنه لا توجد جماعتان شعبيتان بارزتان تهدفان الى تحقيق نفس الاهداف أو تتفقان عليها . ولقد وجد الفرنسيون ـ منذ الحرب العالمية الاولى ، ولا سيما فى السنوات الاخيـرة ـ وجدوا أنه من المستحيل التوفيق بين الاهداف المتصـارعة التى ترمى الى تحقيقها الجماعات المتعددة ذات المصالح القوية داخـل الدولة . ولقد أدى الى شل أيدى الفرسيين فى شمال افريقيـا لعدة سنوات ، أن الحكومة لم تستطع أن تضع خطة واحدة لتسير عليها وتتفق فى الوقت نفسه مع الاهداف التى تنشـدها الاحزاب المختلفة . وقد تأرجحت الاهداف المراد تحقيقها فى شمال افريقيا بين رغبات المستوطنين الفرنسيين فى شمال افريقيـا الذين كانوا يريدون الابقاء على الحكم الفرنسى لينتفعوا هم من وراء ذلك دون أن يعبأوا بما يتكلفه ذلك من أموال وسفك للدماء ، وبين الاهداف التى يرمى الى تحقيقها رجال الاعمال وأصحاب المصالح الهامة فى فرنسا الذين يودون الاحتفاظ بشمال أفريقيا ، ولكنهم لا يضمرون النية فى دفع المزيد من الضرائب لسد النفقات الحربية البـاهظة ، وبين أهداف الشبان الفرنسيين الذين يفضلون التمرد على أن يرسل

بهم الى شمال أفريقيا للخدمة العسكرية ، ومن أهداف قلة من المثاليين البارزين الذين يرون أنه يجب منح بلاد شمال أفريقيا حرياتها فورا .

اذن ففرنسا والاتحاد السوفيتي يمثلون طرفي النقيض ، ومعظم الدول تجد لها مكانا ما بين هاتين البلدين من حيث درجة اجماع الجماهير على الاهداف القومية . الا أنه من المهم أن نعرف مدى الاجماع الذى تناله أهداف معينة اذا أردنا أن نفهم السبب الذى يجعل دولة ما تسلك سلوكا بعينه . وستكون تصرفات الدولة أكثر فعالية اذا كانت أهدافها تنال موافقة معظم الجمهور . وفى الوقت نفسه ستكون الاهداف محددة للغاية حيث تنال اجماعا كبيرا يؤيدها لأن احدى الوسائل التى تخفى مظاهر الخلاف وتتيح للحكومة التمتع بمكانة خاصة حتى ولو كانت تواجه عددا من المصالح المتباينة هو أن تكون الاهداف القومية غامضة وغير محدودة . غير أنه يكاد يكون من المستحيل السعى الى تحقيق مثل هذه الاهداف الغامضة ، حيث انه ليس من الواضح تماما ماهو الوضع الذى تبغيه الدولة مستقبلا ، وان أى اجراء محدد قد يؤدى الى تجدد نشوب الصراع الذى يصعب اخفاؤه أو طيه .

الاهداف القومية والاهداف الانسانية

أما السؤال الثانى الذى يجب أن نطرحه فهو : من الذى سيستفيد

من الوضع الذى تبغى الدولة تحقيقه مستقبلا ؟ وهل تحقيق الهدف القومى الذى يعود بالنفع على هذه الدولة وحدها ، أو هل سنستفيد منه الدول الأخرى أيضا ؟ ان النتائج الهامة فى هذا الشأن تتوقف على ما اذا كان الهدف قوميا أو انسانيا بحتا لانه اذا كانت الدولة التى سعى الى تحقيق هدف هى وحدها التى ستستفيد منه فلا يمكنها أن تتوقع أن تقوم الدول الاخرى فعلا بتأييد أهدافها ، بينمـــا لو استفادت الدول الاحرى منه أيضا ، لكان من المتوقع أن ينال هــذا الهدف، تأييدها، ولسنا نتساءل هنا عما اذا كانت الدول الأخرى ستتأثر من جراء تحقيق هذا الهدف ، ولكن عما اذا كانت ستحقق فائدة ما . فاذا لم تتأثر الدول الأخرى به فان الهدف لايكون هدفا دوليا ولا يعنينا هنا مطلقا .

ولنبحث أولا فى الأهداف التى يقال عنها انها ذات طابع انسانى، وبعدئذ نتناول تلك الاهداف ذات الطابع القومى المحـــدود نوعا . وقد تتحقق فوائد جليلة للدولة التى تسعى الى تحقيق أهداف يعتقد شعبها وشعوب الدول الاخرى أنها تعد بمثابة خطوات نحو تحقيق الصالح العام . فان الدولة التى تريد أن تقنع الدول الاخرى بأن تحذو حذوها أو بأن تفعل كما ترى يجب أن تحمل تلك الدول على الاعتقاد بأنها تعمل فى سبيل خيرها وخيرهم . وتتيجة لذلك نجد أن جميع الدول تدعى أنها تعمل حقا من أجل خير البشرية .

وليس هذا الامر يسيرا كما يبدو • لانه اذا كان على الدولة أن تقنع الدول الأخرى بأن أهدافها تسعى الى تحقيق المصلحة العامة فلابد لها من أن تراعى القيام ببعض الواجبات وأولها أن تؤمن الدولة نفسها بذلك ، لانه من الصعب جدا للمرء أن يحمل الاخرين على الاعتقاد فى أمور لا يؤمن هو نفسه بها • فالصدق والاخلاص هنا أمران ضروريان • فلا بد أن تؤمن الجماعة القومية ، بل وزعماؤها بوجه خاص ـ تؤمن ايمانا عميقا بأن ما تفعله هو فى سبيل الصالح العام •

ويمكننا أن نستشهد بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كمثالين على ذلك • فقد نجحت كلتا الدولتين فى حمل الدول الاخرى على الاعتقاد بأن كثيرا من أهدافهما القومية موجهة للصالح العام وانه ليس لدى الامريكيين والروس أدنى شك فى أنه اذا أتيح للعالم فرصة الاختيار ، فانه سيختار حتما طريقتهما فى الحياة • ونحن الامريكيين نؤمن ايمانا راسخا بأن العالم بأسره يرغب فى أن يحقق الثروة والحرية كما حققناها ، ونحن واثقون من أن جميع الشرفاء من الرجال يعترفون بأن خططنا السياسية تجاه الدول الاخرى قد وضعت ومصالح هذه الدول فى صميمها • وقد أوضح أحد وزراء الخارجية الامريكية هذا الرأى منذ عدة سنوات توضيحا شاملا • فقد قال جيمس بيرنز نقلا عن نفسه عندما ابلغ مولوتوف وزير الخارجية الروسية :

« لا بخشى أحد فى العالم الولايات المتحدة أو نواياها » .

كما صرح جون فوستر دالاس وزير الخارجيه الامريكية أخيرا فى مؤتمر صحفى عام ١٩٥٧ بقوله :

« اننا نخشى - وأعتقد أن لدينا ما يبرر هذا الشـــعور - أن الاتحاد السوفييتى قد يبدأ الهجوم فى ظل ظروف معينة . ولست أعتقد انه ليس لدى الاتحاد السوفييتى أى أســاس شرعى يجعله يخشى أى هجوم من أى مكان فى الولايات المتحدة أو من احدى قواعـــدنا .

والروس من جانبهم واثقون أيضا من أنهم فى جانب الحـق وأنهم سينتصرون بمرور الوقت . وبينما نحاول نحن أن ننقــذ العالم من الشيوعية ، يحاولون هم انقاذ العالم من « الاستعمار » الرأسمالى، وكل فريق يتهم الآخر بالنفاق والخداع، ويدعى انه لو استطاع الناس فى العالم التوصل الى الحقيقة والتحرر من العبودية، فانهم سيعتنقون حتما طريقته فى الحياة .

ولنضرب مثالا جيدا على شعب واثق أساسا من أنه خلق عـلى الارض من أجل خير البشرية وهو الشعب البريطانى . والواقـع أن ثقتهم فى هذه الناحية هى السبب الرئيسى الذى دعا معظم بقية شعوب العالم الى موافقتهم على ذلك . وقد كتب سيسل رودس أحدا

عظماء الرجال الذين ساهموا فى بناء الامبراطورية الانجليــزية يقول :

« اننى أصر على أننا أسمى عنصر فى العالم وانه كلمــا زدات الاماكن التى نقطنها فى العالم كلما كان ذلك أكثر خيرا للجنس البشــرى » •

أو لننظر الى تلك العبارة التى أوردها و• ن ستيد أحـــد الصحفيين الانجليز المعروفين فى القرن التاسع عشر :

« ان العنصر الذى يتكلم اللغة الانجليزية هو أحد العوامل الرئيسية التى اختارها الله لادخال التحسينات المقبلة فى سائر الجنس البشرى • والامثلة من هذا النوع كثيرة متعددة •

الا أنه لا يكفى أن تؤمن أنك تتصرف من أجل تحقيق الخير للعالم ، اذ لا بد أن يؤمن العالم أيضا بذلك • ولهذا الغرض لا بد للدولة أن تضع لها من المبادىء المثالية ما يستهوى الدول الاخرى ، مبادىء مثل : جميع الخلق سواسية ، أو شــعارات مثل : «الحرية والمســـــاواة والاخاء » • أو : « من كل حسب طاقته ، الى كل حسب حاجته » • والواقع أن الدولة قد تنــادى بهــذه المبادىء دون أن تطبقها فى الحياة اليومية ، وهذا ليس بالخطـــأ الفاحش • فعندما يقول الامريكيون فى الجنوب : ان جميع الرجال

خلقوا متساوين فهم لا يشملون ــ بقولهم هذا ــ الزنوج وأنه لا يخطر ببال معظم الفرنسيين قط أن يمنحوا الحرية والمساواة والاخاء الى أهالى مستعمراتهم ما لم يجبروا على ذلك بأسنة الرماح ، وأن الروس لم يحققوا أى نجاح تجاه تطبيق الشيوعية الخالصة ـ الا أن هذه الحقائق كلها لا تقضى على ما لهذه المبادىء السامية من فائدة أو قيمة • اذ أنه يشار الى هذه المبادىء على أنها مثل عليا تحقق للبشرية دائما تقدما نحوها ، وقد يقال ان هذه المبادىء تمثل ما يؤمن به المواطنون حقا بينما يأتى تطبيقها مجرد ملاءمة أو انحراف مؤقت عن جوهرها • فكل فريق يقارن مثله العليا بمدى تطبيق منافسه فعلا لها ، والواقع أن العالم يستجيب لهذه المبادىء ولو أن كل فريق يعلم تماما أن الفريق الآخر لا يطبق مثله السامية تطبيقا حقا •

ولولا وجود هذه المبادىء والتقاليد الانسانية ، لكان من المستحيل ان يؤمن احد بما تظهره دولة ما من حب للغير • ولقد آمنت كل من ألمانيا النازية وامبراطورية اليابان برسالتيهما، غير انهما لم توفقا فى حمل الدول الاخرى على الايمان بمعتقداتهما لأنه لم يكن لدى أى من الدولتين مثل انسانية تصلح للتصدير • فقد كان الالمان حاذقين فى تمزيق اعتزاز البريطانيين بانفسهم ، بيد انهم لم يستطيعوا قط ان يحملوا الآخرين على تصديقهم • وتحدث

اليابانيون عن خلق مجال يحقق فيه الرخاء الشامل ، وتحدثوا أيضا عن شعار «آسيا للآسيويين» ولكن لم تنظر اليهم تلك الشعوب التى هزموها على انهم محررون للشعوب •

والواقع أن نفع هذه المبادىء الأنسانية أمر يؤدى الى خلقها • اذ أن مثل هذه المبادىء والآراء انما هى نتيجة تطور ظل عدة قرون ، ولا يمكن أن تخلق بين يوم وليلة ، كما أنه لا يمكن لدولة ما أن تتظاهر بان لها مبادىء انسانية لانه من المستحب ان يسود الاعتقاد بين الآخرين بان هذه الدولة تتسم بالفضائل الانسانية فلن يسمح الحكام الروس باطلاق حرية الخطابة او الكلام لمجرد أن هذا سيزيد من معرفتنا بهم وسيظل المواطنون فى جنوب امريكا يضطهدون الزنوج حتى ولو أدت تصرفاتهم هذه الى الاقلال من شأن الولايات المتحدة فى أنظار كثير من شعوب العالم • وبالطبع لن يعنى ادعاء دولة ما أن اهدافها ترمى الى نفع البشرية حتى ولو وجدت دول أخرى تؤيدها فى ذلك لا يعنى بالضرورة ان هذا حقا وصدقا • فغالب الامر ان تأكيد دولة ما بأن هدفها هو تحقيق خير البشرية لا يعتبر كذبا صارخا ولكنها تعنف الصدق • اذ من أهم الأمور التى نضطلع بها فى تحليلنا الواقعى للاهداف القومية أن نفرق بين مصالح الدولة ذاتها ومصالح الدول الأخرى (او الصالح العام) فواقع الامر ان الاهداف القومية التى تخدم المصلحة العامة نادرة جدا ، ذلك اذا وجدت على الاطلاق •

ومما يجعلنا نخلط فى الأمر بوجه عام أن الاهداف التى ترمى الى تحقيق الصالح العام هى فى الحقيقة تفيد أكثر من دولة واحدة ، ومثل هذه الاهداف لا تخدم المصلحة العامة ، لأنها لا تفيد جميع الدول بل تفيد بعضا منها . وحتى تلك الدول التى تفيدمنها لاتنال من ورائها قدرا متساميا. ولنبحث أول الامر حال دولة ساد الاعتقاد منذ وقت طويل بأن أهدافها القومية تفيد البشرية ، وبعدئذ لنبحث هدفا بعينه اعتقد الناس طويلا انه يفيد سائر الخلق ولا يؤذى أحـدا منهم ، والدولة التى ستتناولها هنا هى انجلترا، أما هدفها الذى سنبحثه فهو السلام

ان فى مقدور انجلترا ــ الدولة التى كانت تتزعم تنظيما دوليا سيطر على العالم طيلة القرن التاسع عشر تقريبا ــ فى مقدورها أن تدعى بل هى ادعت فعلا أنها كانت تكفل للعالم السلام والنظام . ولقد وافق حلفاؤها على هذا الادعاء . بل خطر ببال بعض أعدائها أحيانا أن يوافقوا عليه . وقداستشهد « كار » بماكتبه أحد الاساتذة الالمان فى القرن التاسع عشر عند قوله : « ان انجلترا هى الدولة الكبرى الوحيدة التى تسير وفقا لبرنامج قومى يتميز ــ برغم مايلتصق به من غرور فى بعض الاحيان ــ بأنه يفى للعالم ببعض الاشياء التى يتحرق شوقا الى تحقيقها وهى : النظام والتقدم والسلام الابدى »

فلماذا صدقت كثير من الدول هـــذا الادعاء الذى كانت تدعيه انجلترا ؟

وتكمن الاجابة فى أن التنظيم الدولى الذى كانت تتزعمه انجلترا كان يوفر فوائد خاصة لـكثير من الدول الاوربيـــة الكبرى وللولايات المتحدة أيضا ، وعندما كانت هذه الدول تفكر فى الانسانية ، كانت تفكر فى نفسها أيضا لا فى ذلك العدد الغفير من الدول والمستعمرات التى تمثل الدعائم الســفلى لذلك التنظيم الدولى الذى تتزعمه انجلترا ، ولم تكن تفيــد مطلقا من حكمها .

وربما كان البروفسور الالمانى يعنى بعبارته هــذه أوروبا فقط ، ولا يعنى بها الهند او الصين أو افريقية .

ولقد كان من الممكن للانجليز ولغيرهم من الاوروبيــين أن يقولوا ان أهداف انجلترا كانت تفيد البشرية وذلك اذا ما كانوا يفترضون ان ما يعتبر خيرا بالنسبة لهم هو خير للعالم أجمـع ؛ الا ان هذا خطأ شائع .

أو دعنا نبحث هدف السلام .. فانه يسود الاعتقاد عامة بانه هدف انسانى حقا ، اذ ان جميع الدول تكسب من وراء السلام ولا تخسر احداها من جرائه شيئا ولكن هذا ايضا ليس هـــو الواقع .. فالحروب لا تضر بالدول جميعها على قدم المســاواة

بل انها قد تفيد بعض الدول •• ففى الحرب العالمية الثانية قاست ألمانيا واليابان أهوالا شنيعة ، ولا شك أنه كان بوسعهما ان تصبحا من الدول الغنية اليوم لو لم تحدث الحرب •• كما قاست انجلترا وفرنسا ايضا ، ولكن مجمل هذا التوازن بالنسبة للاتحاد السوفييتى غير واضح تماما • فقد خسرت روسيا ملايين الارواح ، وقدرا كبيرا من صناعتها ، ولكن عندما يقارن المرء بين مكانة روسيا قبل الحرب ومكانتها اليوم ، لوجد انه لا يتضح تماما ما اذا كانت روسيا خسرت أم كسبت من الحرب •

وقد تثير حالة الولايات المتحدة شكوكا اكثر من ذلك ، فقد وضعت الحرب حدا للكساد فى أمريكا ، ورفعت الولايات المتحدة فتزعمت العالم ولم ينازعها فى ذلك احد • وزيادة على ذلك فان الحرب لم تكبدنا خسارة مادية تقريبا ، بالرغم من انها كبدتنا الارواح • واذا قارن المرء بين الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٩ وبينها فى عام ١٩٤٥ لاصبح من الصعب فى الواقع ان يقرر ان الولايات المتحدة خسرت من الحرب العالمية الثانية اكثر مما كسبت •

ومن المؤكد أن كلا من الهند واندونيسيا كسبتا من وراء الحرب العالمية الثانية •

ولنضرب مثلا اكثر وضوحا ، فنأخذ حالة الحرب العالمية

الأخيرة، فمنذ أكثر من عشر سنوات ونحن لسمع عن تيارجارف من البيانات التى تفيد بان قيام صراع عالمى ثالث سيعنى نهايـة العالم • وقد يكون من الممكن تماما ان تدمر الولايات المتحـدة وروسيا كلا منهما الاخرى تدميرا تاما فى مثل هذه الحرب ، وانهما قد يدمران معظم بلدان أوروبا فى هذه العملية •

ولكن روسيا والولايات المتحدة واوربا ليست هى العالم كله • وحتى تلاشى المدنية الغربية •• وهذا أمر كثيرا ما نخشاه •• لن يعنى نهاية العالم ، بل سيعنى نهاية عالمنا نحن • ولكن هل ستفقد آسيا شيئا ؟

وماذا عن افريقية أيضا ؟

ان انشغال القوات الاوروبية بمواقع اخرى سيتيح لافريقية ان تحقق حريتها فهل ستخسر أفريقية شيئا ؟

غير ان هذه حالات متطرفة ، وربما تكون قدروعت القارىء•• ولسنا نقصد هنا أن نقول ان الحروب أمر مستحب ، فمن المؤكد انها تجلب فى المتوسط ــ الشقاء أكثر مما تحقق المنفعة •

أما ما نعنيه هنا هو أن السلام ــ لاسيما اذا كان الســلام يعنى المحافظة على الوضع الراهن ــ لا يفيد كل الدول على قدم المساواة ، وان تلك الدول التى تسعى الى تحقيق السلام على أنه هدف قومى بينما هى تدعى انها تهتم بتحقيق الخير لجميع الناس

.. انما هى تبدى اهتماما جديا فى أغلب الاحيان بتجنب الدمار الذى قد تسببه الحرب لثروتها الخاصة ، وباطالة اجل مواطن الامتياز التى قد يساعد السلام على ضمانها . وقد يكون السلام هدفا قريب الصلة بالاهداف الانسانية الحقة، غير انه حتى السلام نفسه تسعى الدول الى تحقيقه من أجل اغراض اقل شأنا من الاهداف الانسانية .

وتبين العبارات الموجزة التى أوردناها سالفا أن للاهداف الانسانية بعض المزايا الخاصة بالنسبة للدول التى تعتنقها .. وأهم هذه المزايا هى أن الدول الاخرى ستساعد على وضع هذه الاهداف موضع التنفيذ . فلم يقدم أحد ـ مما لم يغرر به ـ على مساعدة دولة فى تحقيق اهدافها التى تعود بالنفع عليها وحدها ، ولكن كثيرا من الناس سيهبون الى مساعدتها فيما يبدو أنه قضية مشتركة. فلا تخترع الدول الاهداف الانسانية لمجرد انها ذات نفع لها ، ولكنها اذا استطاعت ان تحققها فانها ستكون مفيدة لها . الا اننا يجب أن نتذكر أن كثيرا من الاهداف التى نعتبرها فى سبيل المصلحة العامة تفيد أولا مجموعة صغيرة نسبيا من الدول التى تعمل من أجلها .

ولنتناول الآن الاهداف القومية ذات النطاق الضيق . ومهمتنا هنا بسيطة للغاية فنحن نعنى بالاهداف القومية ذات النطاق الضيق . تلك الاهداف التى تتيح للدولة التى تسعى

من أجل تحقيقها ان تتلقى وحدها كل الفوائد التى تعود مـــن وراء تحقيق الغاية المرجوة منها • وحيث ان دولة واحدة هـــى التى ستنتفع منها وحدها ، اذن فهذه الدولة وحدها ايضا هى التى ستتحمل عادة العبء كله فى جعل الدول التى بمقدورها أن تحقق أهدافها بنفسها ، هى التى يمكن أن يكون لها مثل هذه الاهداف • فاذا لم تستطع دولة ما ان تحقق رغباتها عن طريق جهودهــــا الخاصة ، فلن يكون بوسعها ان تضع لنفسها اهدافا قوميـــة محددة • ويجب أن تكون أهدافا عريضة بحيث تثير اهتمـــام الدول القوية من جاراتها التى لابد ان تساعدها على تحقيق هذه الاهداف • والبديل الوحيد امام الدولة التى لا تستطيع ان تنفذ مشروعاتها وحدها ولكنها تصر على أن تصنع لنفسها هـــــذا النوع من الاهداف التى تفيد احدا غيرها هو أن تقنع نفسهـــا بأحلام اليقظة وان تمنع نفسها من أن تفعل شيئا فى المجال الدولى •

وفى هذه الحال تصبح الاهداف مجرد آمال فعلا ، أى تصبح حالة يرجى تحقيقها مستقبلا دون أن تبذل الدولة جهـــدا فى محاولة تحقيقها • اذ أن الانانية ــ فى الشئون الدولية كمـــا فى الحياة الفردية ــ متعة لا يقدر على التمتع بها الا الاغنيـــاء أو الأقوياء ،

وهكذا نجد أن الدول الضعيفة تكاد تكون مجبرة على أن تصنع لنفسها اهدافا دولية تبدو على الاقل أنها أهداف انسانية

بينما تتاح للدول القوية فرصة اختيار أكبـــر من حيث نوع الاهداف التى تتمسك بها . الا أن الدول الكبرى قد تجـــد أحيانا أن تأكيدها للاهداف القومية المحدودة يكون اكثر فعالية لاسيما فى الحالات التى يقع العبء الكبير للتضحية فى سـبيل تحقيق الهدف على عاتق الامة نفسها .

فعندما كانت روسيا تكافح فى سبيل حياتها ضد العدوان الالمانى فى الحرب العالمية الثانية ، تخلت عن تأكيدها للاهــداف الانسانية للشيوعية ، وصارت تؤكد للشعب الروسى انها كانت تحارب من أجل روسيا الام والوطن ومن أجـــل ارواحهـم وممتلكاتهم . وعندما ابدى تشرشل اســـتعداده لبـــذل دم البريطانيين وكدحهم ودموعهم وعرقهم كان الهدف هو ســلامة انجلترا ، وعندما يطلب من الامريكيين دفع المزيد من الضرائب ، فان الهدف الذى يقدم اليهم هو أمن أمريكا وكلما عظمـــت التضحية التى تطلبها الدولة من شعبها كلما كانت الأهداف التى تسعى الى تحقيقها قومية محددة .

وهناك مثال آخر يبرهن على أن تاريخ الأهداف القوميـــة المحدودة أكثر نفعا من تاريخ الاهداف الانسانية . فاذا أرادت الحكومة من الدولة أن تتخذ اجراء من الواضح أنه لا يتفق مع مصالح الدول الاخرى فانها ستجد من الصعب أن تروج مثل هذا البرنامج فى دولة اعتادت أن تفكر فى نفسها على أنها تجلب الخير

للبشرية . ويرجع احد الأسباب التى دعت الى أن تفقد انجلترا جزءا كبيرا من امبراطوريتها الاستعمارية فى السنوات الاخيرة الى أن الانجليز انتهوا الى الاعتقاد فى نفس الاسطورة التى كانوا يرددونها وهى أنهم كانوا يحكمون المستعمرات لتحقيق خير الشعوب المستعمرة . ولهذا لم يتمكن الانجليز من اتخاذ الخطوات التى كان يتطلبها الوضع لامتلاك هذه المستعمرات مدة أطول .

وهكذا سواء أكانت الأهداف القومية أم الاهداف الانسانية تبرهن على أنها أكثر نفعا فان ذلك يتوقف على ماتريد ان تفعله الدولة ، ومدى ما لها من قوة ومدى عظم التضحيات التى يتطلبها تحقيق الهدف ، ومن الذى سيقوم بهذه التضحيات .

الاهداف البعيدة المدى والاهداف العاجلة

وهناك اعتبار هام آخر يتعلق بالزمن الذى ينتظر انقضاؤه قبل تحقيق هدف قومى . فالاهداف البعيدة المدى أكثر امانا ـ الى حد ما ـ بالنسبة لأية حكومة قومية، حيث انه من الصعب أن يقرر المرء ما اذا كانت هذه الأهداف قد تحققت ام لا . فاذا كان الهدف على الافق البعيد فانه يكون من الممكن دائما أن يدعى المرء أنه يمضى فى الطريق نحو تحقيقه ، ويكون الاخفاق المحتمل فى الوصول اليه مؤجلا فى المستقبل غير محدود ، ومن

ناحية أخرى نجد أن من الصعب أن يثير المرء مشاعر الحماسة المتدفقة عند الجماهير بالنسبة للاهداف البعيدة جدا ، اذ أنه يبدو من السهل أن تحرك الناس فى الاقدام على عمل تترتب عليه فوائد تعود عليهم أو على الاقل — على أولاهم مباشرة — ومن الصعب أن يعمل المرء من أجل الاسلاف دون أن يجنى بعض الفوائد من حين لآخر على طول الطريق •

وينبغى أن تتمشى الاهداف العادلة والاهداف البعيدة المدى مع بعضها من الناحية المثالية ، فتقرر الاهداف البعيدة المدى الشكل الذى يمكن أن تتخذه الاهداف العاجلة ، اذ ستكون الاهداف العاجلة بمثابة خطوات نحو تحقيق الهدف البعيد المدى • ومع ذلك فهناك فى الغالب صراع بين الاثنين • وفى مثل هذه الحالات تتفوق الاهداف القصيرة المدى فى أغلب الاحيان ، لأنها تكون : أولا أقصر مادية وثانيا لانها تلقى ضغطا أكثر من جانب المواطنين لتلقى الفوائد العاجلة التى تعدهم بها هذه الاهداف •

ونحن نجد — بوجه عام — أن البلاد التى تتولى مقاليدها حكومات شعبية تلقى ضغطا كبيرا من جانب الجماهير لتسعى نحو تحقيق الاهداف العاجلة أفضل من أن تبذل تضحيات قد تظهر نتائجها فى المستقبل ، ونتيجة ذلك — كما يتبين لنا بوضوح

اذا ما ألقيت نظرة على السياسة الخارجية الامريكيـــة أو البريطانية ـ أن يكون هناك فى أغلب الاحيان سبيل للعمل لا يبدو واضحا انه موجه نحو تحقيق أى هدف بعيد المدى ،ولكنه مجرد تقلب من أزمة الى اخرى .

أما الحكومات الاوتوقراطية فهى تعتبــر ـ من ناحيــة أخرى ـ أكثر حرية فى أن تقوم بتنفيذ خطط بعيدة المدى ، اذ ان التكوين الحكومى فى تلك الدول يسهل مقاومة المطـالب الشعبية العاجلة .

الاهداف العامة والاهداف الخاصــة

ويمكننا أيضا ان نفرق بين الاهداف التى تكون ذات طابع خاص والأهداف العامة أو غير الواضحة . ولقد أشرنا من قبل الى أن الأهداف الخاصة التى لا يمكن التوفيق بينها ، والتى تنشدها بعض الجماعات الهامة داخل الدولة ـ هذه الاهداف من المحتمل أن تتمخض عن أهداف قومية غير واضحة المعالم . وربما كان أوضح الامثلة على مثل هذه الاهداف قد نجده فى المبادىء الانتخابية التى يعتنقها كل من الحزبين السياسيين فى أمريكا .. فيجعل هذه المبادىء ذات طابع عام للغـاية يأمل الحزب فى أن يستهوى الى جانبه هؤلاء الناس الذين يعتنقون وجهات نظر معارضة .

وهكذا فان القول « بتحقيق علاقات منصفة بين العمال وهيئات الادارة» يعتبر عبارة من المفروض أن تجد استهواء لدى زعماء العمال المشاكسين وكذلك لدى أصحاب العمل الذين يقفون من العمال موقفا عدائيا شديدا . ومثل هذه التعليمات شائعة للغاية فى السياسة الداخلية ، وهى توجد أيضا فى السياسة الدولية .

وهكذا فان الحكومة التى تأخذ على عاتقها أن تسعى لتحقيق السلام العالمى تفترض أن فى مقدورها أن تعتمد على معونة الدول جميعها فى هذا الشأن .. بالرغم من انها لم توضح ما اذا كانت تعنى انها سوف تسعى الى تحقيق السلام عن طريق نزع السلاح ، وتخفيف الضرائب على المواطنين ، أو عن طريق سباق التسلح وفرض الضرائب الباهظة على مواطنيها وربما كان السلام أوضح الامثلة للهدف الدولى غير المحدود ، فاذاقلنا السلام تساءلنا ما هو نوع السلام الذى نعنيه ؟

وبأى ثمن ينبغى تحقيقه ؟

وعلى حساب من ؟

فاذا لم نجب عن هذه الأسئلة وجدنا أنه من المستحيل أن نعرف ما هى الاجراءات التى ترى الدولة اتخاذها من أجل تحقيق السلام ؟ لأننا اعتدنا يوميا أن نشهد الدول تأتى كل منها

أفعالا تتعارض مع الافعال التى تأتيها الدول الاخرى تعارضا تاما ، وكل هذا باسم السلام .

وتفيد الاهداف العامة عير المحدودة فى تغطية الخلافات داخل الدولة . كما أنها تفيد فى انها تدع المنافسين يقضون وقتهم فى تخمين ما يرمى اليه منافسهم وربما كان الوضع المثالى بالنسبة للدولة هو أن تسودها وحدة داخلية كاملة تعضد الاهداف العامة والخاصة ولو أن عليها أن تقصر اصدار البيانات العامة على مجال الاهداف العامة فقط . وهذا يكفل للحكومة حرية التصرف فى المجال الدولى كما يكفل لها أكبر قوة ممكنة فى أى موقف خاص ينشأ .

وينبغى أن نلاحظ أخيرا أن الاهداف العامة يمكن أيضا ان تخدم اغراض النفاق . فقد تكون الاهداف الخاصة قومية محدودة وتتسم بروح عدائية تجاه الدول الاخرى، وان التصريح بها مباشرة سوف يثير معارضة الدول الأخرى ، بينما سيؤدى التصريح بما يناقضها الى تشويش أذهان المواطنين فى الداخل. وفى مثل هذه الحال تعد الاهداف العامة غير المحدودة التى تتسم فى الغالب بطابع السانى تعد مفيدة للغاية .

فعن طريق استخدامها يمكننا ان نقول ان اخماد ثورة فى المستعمرات انه : اعادة اقرار النظام . وعن تدبير قلب حكومة

منافسة : انه مناهضة للطغيان ، وعن الاستعداد للغزو انه تأكيد لاستتباب السلام .

ويكمن الخطر فى الاعتماد كلية على اســــتخدام الاهداف العامة فى أن الدولة التى تفعل ذلك قد تنسى أن عليها أن تدرك — ولو سرا على أقل تقدير — من أجل القيام بأعمال فعالة ماهى أهدافها الخاصة ، وقد يتحدث المرء بصفة عامة ولكنه لابد أن يخصص ما يفعله دائما اذا تصرفت الدولة دون أن تضع أمامها أهدافا خاصة يعنى انها تخاطر بأن يترتب على تصرفاتها نتائج غير التى ترمى الى تحقيقها ، وتعتبر الأهداف غير المحدودة ضرورية اذا كانت الدولة منقسمة على نفسها — رغم انه قد يكون مـــن المستحيل فى هذه الحال القيام بأى تصرف فعلى ، ولكن اذا كانت الدولة متحدة فلابد أن تدرك ما هى أهدافها الخاصة حتى ولو أرادت أن تخفى هذه الاهداف عن الدول الاخرى .

الاهداف المعلقة والاهداف الحقيقية

ان الحديث عن الاهداف القومية على انها ليست فى واقـــع الامر ما تدعيه الدولة أو ما تبدو هى عليه يقودنا الى النقطـــة التالية التى نريد أن نصل اليها فى الحديث عن أهداف الدولة ، هل تمثل البيانات التى يصرح بها زعماء دولة ما ، أهداف هذه الدولة فعلا ، أو هل هى بيانات خاطئة ، أو يقصـــد بها خداع الآخرين .؟

ان هذه معلومات هامة بالنسبة لهؤلاء الناس الذين عليهم أن يتعاملوا مع مثل هذه الدولة ، والواقع أن أهم الوظائف الملقاة على عاتق أقلام المخابرات فى اية دولة هو التعرف على الاهداف الدولية الحقيقية للدول الاخرى والاخطاء التى ترتكب فى هذا الشأن قد تكون فادحة الثمن ان لم تكن قاضية ، فقد خسرت ألمانيا حربين عالميتين لأنها لم تفهم أن اهداف امـــريكا كانت تستبعد امكانية السماح لالمانيا بأن تهزم انجلترا وفرنســا .
وكادت انجلترا من جانبها أن تخسر الحرب العالمية الثانية لأنها لم تفهم أن هدف المانيا هو الحرب والتفوق على العالم ، ولكنها اعتقدت أن اهداف هتلر كانت محدودة أكثر من ذلك ، ويمكن اشباعها بطريق التخلى له عن بعض الامتيازات .

ولقد ورد فى مذكرات كونت شيانو وزير خارجية ايطاليا فى ذلك الحين ، وردت محادثة طريفة جدا بشأن هذا الموضوع قبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية بحوالى شهر ، يقول شـــيانو : انه سأل وزير خارجية المانيا قائلا :

ــ حسنا ياريبنتروب ماذا تريدون ؟ ممر دانزج أم مينــا دانزج ؟

وكانت الاجابة موجزة ومعبرة اذ أجاب بقوله :

ــ ليس هذا فقط ، اننا نريد الحرب .

وبالطبع لم تكن انجلترا طرفا فى هذه المحادثة ، ولكنه يبدو ــ اذا ما نظرنا الى الوراء ــ انه كان من الممكن أن تفطن انجلترا الى أن تصرفات ألمانيا أو الى أن تصرفات هتلر لا تسل الأهداف الحقيقية التى تنشدها ألمانيا ، فقد فهم أعوان هتلر ذلك فهما تاما .

فاذا اعترفت دولة ما بمجموعة من الاهداف بينما هى فى الواقع تتمسك بمجموعة أخرى غيرها ، فمن الممكن عادة أن نجد بعض الدلائل على ذلك ، وحيث ان الاهداف القومية تعد أغراضا يجب أن تعمل الدولة كلها من أجل تحقيقها ، فان من المستحيل أن يظل الناس جميعا يجهلون الاتجاه الذى تسير فيه الدولة فاذا كان هناك تصرف بدأ التفكير فيه مثل شن الحرب فهناك كثير من الخطوات التمهيدية الواضحة التى يجب اتخاذها ، وبوجه عام اذا كان هناك تباين بين ما تدعيه دولة ما وبين ما تفعله فى الواقع ، فمن الاسلم أن يلجأ المرء الى مراقبة سلوكها أو الى تصرفاتها ليتبين حقيقة الامر .

ومن المفيد أيضا أن يقارن المرء بين ما تقوله حكومة ما للاستهلاك المحلى وبين ما تقوله للعالم الخارجى لأنه ليس من الممكن هنا أيضا أن يغرر المرء بمواطنيه تغريرا تاما اذا اراد أن يعتمد عليهم فيما بعد لتعضيده بل ولبذل التضحية فى سبيل تحقيق

أهداف الدولة ، ففى خلال السنوات الاولى من الحرب الثانية مثلا عقدت روسيا والمانيا معاهدة عدم اعتداء، وكانت الدولتان صديقتين رسميا ، ومع ذلك ظل الرسميون الروس المتصلون اتصالا مباشرا بالشعب الروسى ظلوا يعظون الناس بأنه لا يجب أن يثق المرء بالالمان وانه يجب على روسيا أن تكون على استعداد دائما لمواجهة أى طارىء .

فمن المستحسن اذن أن يفحص المرء الاهداف التى تعلنها الدولة على ضوء تصرفاتها وعلى ضوء ما تقوله هى لشعبها غير أن هذه الدلائل بدورها ليست معصومة من الخطأ لأننا كنا لاحظنا قد نجد نفس التصرفات مناسبة بالنسبة لعدة أهداف مختلفة . فقد تكون التعبئة فعلا استعدادا لشن العدوان ، ولكنها أيضا قد تكون دليلا على الخوف او استعدادا للدفاع عن النفس وقد تعمل روسيا بدفعها عجلة التصنيع الى الامام كاجراء لبناء قوتها الحربية للحروب المقبلة ، ولكنها أيضا قد تكون مهتمة أساسا برفع مستوى معيشتها مستقبلا ، اذن فالسلوك او التصرفات التى تتناسب مع شتى الأغراض ليست عاملا يساعد كثيرا على الوصول الى استنتاجات بشأن نيات الدول الاخرى .

كما ان التصريحات التى يقصد بها الاستهلاك الداخلى ليست دائما دليلا واضحا على النوايا القومية . اذ من الممكن

تماما أن تكذب حكومة ما على شعبها ، وأن تعمل على تحقيق أهداف قد لا تقبلها غالبية المواطنين لو أعلنت صراحة .

ويبدو أن هذا هو الحال الذى ساد السنوات الاولى من كلا الحربين العالميتين عندما اعتبرت الحكومة الامريكية بشكل واضح أن انتصار الحلفاء هدفا أكبر أهمية من مجرد ابقاء أمريكا بعيدة عن الحرب غير انها ظلت تصدر البيانات العامة للشعب الامريكى مؤكدة فيها انها لن تطلب منهم حمل السلاح ، اذن فالتباين بين الاهداف الحقيقية والاهداف المعلنة التى تسعى اليها الدول أمر شائع ، ولكنه ليس من السهل دائما أن يتبين المرء كنهه .

وقد يعود التباين بين الأهداف الحقيقية والأهداف المعلنة بالفائدة على الدولة وذلك عن طريق تضليل الآخرين من ابعاد أنظارهم عن الأهداف غير العامة ولكن هناك طريقة واحدة يكون فيها التباين غير مفيد اطلاقا وهذا يصدق تماما لا سيما فى الأحوال التى يكون فيها الهدف المعلن هدفا انسانيا بينما يكون الهدف الفعلى هدفا قوميا محدودا ولا ينال استحسانا كبيرا ففى مثل هذه الحالة قد يستغل أعداء الدولة هذا التباين ليضعوا الدولة فى موقف حرج فى الخارج وليقللوا من التأييد الذى تتناوله الحكومة فى الداخل .

وتتسم أهداف أمريكا بالنسبة لعالم المستعمرات بهـذا الطابع اذ أن أهدافنا التى أعلناها منذ سنوات هى انهاء الاستعمار وتحقيق الحرية والاستقلال لجميع الدول الا أننا عندما وجدنا أنفسنا أمام ذلك الصراع المسـلح بين حلفـائنا الأوربيين ومستعمراتهم ناصرنا على طول الخط حلفاءنا الأوربيين ولقـد أسرع الروس بفضح هذا التباين .

واستغلوه فى التشهير بنا فى الخارج ولقد أدى هذا التباين الى احراج الأمريكيين أيضا فقللوا من تأييدهم الكامل لسياستنا اتجاه عالم المستعمرات والدولة التى تستطيع أن تعلن أهدافهـا الحقيقية بكل صراحة تجد أمامها فرصا مواتية بالنسبة لعـدة اعتبارات ولأنها لا تتعرض لهذا النوع من الهجوم فان سياسة ألمانيا النازية ازاء ما كانت تعتقد فيه من نظرية العناصر الدنيـا كانت ممقوتة .. ولكنها كانت تتمشى تماما مع أهدافها ومن غير الممكن أن نقلل من شأن تصميم النازيين بالاشارة الى التباين بين كلماتهم وأفعالهم لأنه لا يوجد مثل هذا التباين اطلاقا .

واحدى الوسائل التى تتيح لنا أن نتناول هذا التباين بين الأهداف الحقيقية .. والأهداف المعلنة هو أن نتجاهل أى خلاف قد يوجد بينها اذ أنه من الصعب أن نقلل من شأن دولة مثـل انجلترا فى القرن التاسع عشر التى كانت تعتقد حقا أن انشاءها لامبراطورية واسعة كان أمرا تقصد به أساسا أن تدخل المد

بين الشعوب الجاهلة واليوم تتذرع كل من الولايات المتحـدة وروسيا ببعض الصفات التى تبرر مسلكها لتحمى نفسها ومثل هذه الدول تعترف على كره منها انهـا اعترفت بأنها فى سبيـل محاولاتها لانقاذ العالم يحدث دائما أنهـا توفق أيضا فى تدعيم مكانتها وفى ملء جيوبها وزيادة هيبتها .

الوضع الراهن والتغير

يبقى أمامنا بعد دلك الا أن ندرج ملاحظة أخيرة فقد تحدثنا عن الأهداف على أنها حالة يراد تحقيقها مستقبلا غير أنه توجد دول كثيرة قانعة بكثير من مظاهر العـالم الحاضر اذ أن تحقيق كثير من الأهداف القومية لا يعنى بالنسبة لهما سـوى العمل على استمرار الوضع الراهن مستقبلا ومن المهم أن ندرك ما اذا كانت هذه هى الحال أم أن تحقيق الهدف القومى يقتضى حدوث تغير حتما .

ان من يجعلون هدفهم قلب الوضع الراهن ينظر اليهم فى الغالب على أنهم مثيرون للشغب ومقلقون للسلام يسعون الى تحقيـق أهداف قوميـة محـدودة على حساب الصالح العام بينما يعتبر الذين يسعون الى استمرار الوضع الراهن المدافعين عن السلام والقانون والنظام غير أن مثيرى الشغب أنفسهم يردون على هذا الاتهام بقولهم ان من يسعون الى استمرار الوضـع

الراهن هم أناس يعملون ضد العدل والحـــرية ولا يهمهم الا المحافظة على أوضاعهم وامتيازاتهم •

وهناك بعض الصدق فى كلتا التهمتين فان من يدافعون عن الوضــع الراهـــن هم بــكل تأكيــد قانعــون بهذا الوضع أى انهم هم الذين يتمتعــون بالنفوذ والامتيـــاز على غيرهم كما نجد من ناحية أخرى أن من لا يرضون بهذه الحال ويسعون الى تغيير الوضع الراهن يجدون فى الغالب أنه ليس فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك فى ظل القوانين القائمة أو دون أن يعكروا صفو السلام ولا يمكن لكلا الطرفين أن يدعى لنفسه احتكار الأخلاق أو الأهداف الانسانية •

الخلاصة

لقد عرفنا الهدف القومى بأنه فى تلك الحـــالة التى ترغب دولة ما فى تحقيقها مستقبلا وتعمل الحكومة القومية من أجلها وتحث المواطنين على بذل الجهود فى ســـبيل تحقيقها وقسمنا الأهداف المتعلقة بالشئون الدولية الى أربع فئات رئيسية هى القوة والثروة والخدمات الثقافية والســلام • الا أنه ليس من السهل دائما أن نقرر ماذا كان أى اجراء خاص يقصد به تحقيق هذا الهدف أو ذاك من كل هذه الأهداف اذ أن نفس هذا الاجراء قد يكون خطوة فى سبيل تحقيق عدة أهداف منها فى وقت واحد •

ويمكن العمل على تحقيق الأهداف القومية على أنها أهداف

مطابع شركة الإعلانات الشرقية

بنك التسليف الزراعى والتعاونى

دعامة النهضة الزراعية والتعاونيـــة بالاقليم المصرى

الادارة العامة : ١١ شارع محمد صبرى ابو علم بالقاهرة

رئيس مجلس الادارة : **السيد/سامى حسن ابو العز**

عدد فروع البنك بالمديريات وغزة	٢٣
عدد التوكيلات بالمراكز	١٠٤
عدد الشون للحاصلات	٤٨٠
عدد مخازن الاسمدة	٥٢٤
عدد مخازن السكر والدقيق	١١٥

وكلها منتشرة فى جميع انحاء اقليم مصر وقراه المختلفة .

وانه يحق ان يطلق عليه

بنـــك الفـــلاح

فقد

- حرر الفلاح من المرابين بفضل قروضه الميسرة لزراعـــة الارض وحرثها وريها ومقاومة الآفات وجمع المحصول .
- منحه الاسمدة والتقاوى لكافة الزراعات .
- قام بتقديم السلف برهن محصوله حتى تتاح الفرصة لبيعـه بالسعر المناسب .

ويحق ان يطلق عليه أيضا

بنـــك التعـــاون

فانـــه

- يقدم للجمعيات التعاونية جميع الخدمات التى يقدمها لكافة الزراع وبفائدة مخفضة واسعار مخفضة .
- يقدم سلفا قصيرة الاجل لشراء الوقود وتربية العجول واقامـة الحظائر وسلفا متوسطة الأجل لشراء الالات الزراعيـــة والمواشى واقامة المنشئات الزراعية كمعامل الالبان .
- ويقدم سلفا طويلة الاجل لاقامة المساكن لاعضـــاء الجمعيـــات التعاونية .
- يقدم سلفا لاصلاح الاراضى .

- يقوم بكافة الاعمال المصرفية للجمعيات التعاونية الزراعية والاستهلاكية .
- يقدم سلفا لجمعيات صيد الاسماك لرفع مستوى الصيادين ومضاعفة الثروة المائية .
- يقدم سلفا للجمعيات الصناعية كالجمعيات التى تعنى بصناعة النسيج .
- يقرض الجمعيات التعاونية الاستهلاكية (المنزلية)

كما يحق ان يطلق عليه

بنك الشعب

فانه
- يشترى المحاصيل من الزراع ويوزعها على مناطق الاستهلاك .
- يستقبل المحاصيل الواردة من الخارج ويوزعها بكافة انحاء الاقليم المصرى .
- يقوم بتوزيع الدقيق والسكر والزيت بكافة انحاء الاقليم المصرى .
- يقوم بتوفير الكسب والعلف مما ساعد على تنمية الثروةالحيوانية.
- يعمل على توفير عبوات الخيش اللازمة للحاصلات الزراعية باقل الاسعار .
- يقوم باستلام الارز الابيض من المضارب ونقله الىجهات الاستهلاك.

وجدير به ان يطلق عليه ايضا

بنك الثورة

فهو الذى
- ساعد على القضاء على الاقطاع وقدم القروض لصغار الزراع والمستاجرين .
- عمل على تدعيم الحركة التعاونية وتعميمها وتطبيق نظام الائتمان الزراعى الجديد بكافة انحاء الاقليم المصرى .
- قام بتوفير حاجة البلاد من الاسمدة والمواد الغذائية وكان اثر ذلك واضحا فى فترة الاعتداء الثلاثى .
- يعمل على حماية الزراع من استغلال الملاك والتجار والوسطاء والمرابين .
- رفع من مستوى معيشة الفلاح الاجتماعية نتيجة مضاعفة دخله .
- يعمل على توفير التقاوى المنتقاة والاسمدة الصالحة وكل ذلك يحقق مضاعفة المحصول .

كما ساهم البنك فى خلق المجتمع الاشتراكى الديموقراطى التعاونى الذى نادى به سيادة الرئيس جمال عبد الناصر وذلك بتنفيذ نظام الائتمان الزراعى

تلك هى رسالات البنك الرئيسية الاربعة التى يستفيد منها مليون مزارع سنويا واربعة الاف جمعية تعاونية وهى بمثابة فروع للبنك بكل قرية . كما يستفيد منها الشعب بصفة عامة وعلى الدوام .

عيد الوحدة

انه اليوم الذي تلاقت فيه ارادة الشعب الأبي - بقيادة المؤمنة بحريته وعزته - انه اليوم الذي ولدت فيه الجمهورية العربية المتحدة .

ففي هذا العيد تزداد الوحدة قوة وتندفع البلاد في طريق التصنيع الى عهد رخاء ومستقبل باهر .

ونحن في مهرجان العيد الأول ، نزف التهاني خالصة لابناء العرب ونجدد البيعة صادقة لرائد العرب **الرئيس جمال عبد الناصر** ونعاهد الله على أن نسير في ركب التقدم بقوة واقدام .

تهنئة صادقة من شركتي شل وآبار الزيوت



مجموعة

« إخترنا لك »

تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية

ويشترك في تحريرها واعدادها

لجنة « اخترنا لك »

المشرف على اللجنة

عبد القادر حاتم

سكرتير اللجنة

محمد عطا

المراسلات : ص٠ب ١٠٩٤ ـ القاهرة



مطابع شركة الاعلانات الشرقية

